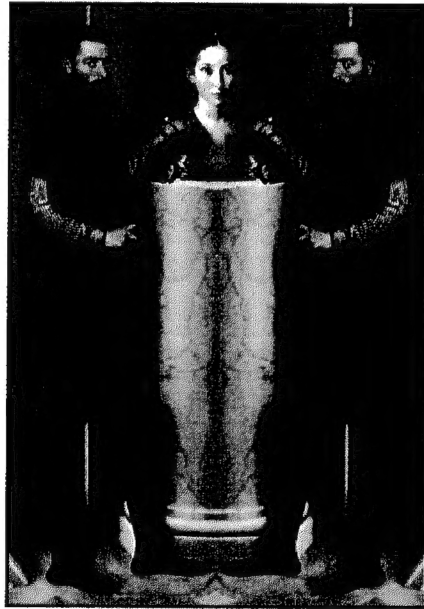
إيتالو كالڤينو

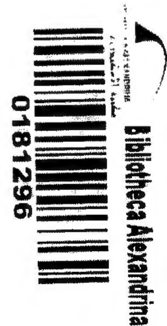
أسلافُنا
الڤيسكونت المشطور

رواية



ترجمة: مَعن مُصطفى حَسّون





الفيسكونت المشطور

* الفيسكونت المشطور
* إيتالــو كالفينــو
* الطبعـة الأولـى 2000

* دار الكلمة للنشر والتوزيـع
سورية ـ دمشق ـ ص. ب : 2229
هـاتــــف ، فـاكـــس : 2126326
* موافقة وزارة الإعلام على الطباعة:
رقـم 48057 تاريــخ 8 - 5 - 2000

Alkalemah for publishing and Distribution
Baramikah - Damascus - Syria
P. O. Box : 2229. Telephone/Fax: 2126326

إيتالو كالڤينو

أسلافنا
الڤيسكونت المشطور

(رواية)

ترجمة: معن مصطفى حسّون

1

كانت رحى الحرب مع الأتراك طاحنة، وكان خالي، الفيسكونت ميداردو دي ترّالبا يمتطي صهوة جواده وهو يعبر بوهيميا قاصداً معسكر المسيحيين، على حين يتبعه حامل الدرع، وكان يدعى كورسيو. مرّ رفّ من اللقالق محلقاً على علوٍ منخفض، أسراب بيضاء تعبر الهواء الكثيف والثقيل.

سأل ميداردو كورسيو:

ـ لِمَ كل هذه اللقالق؟ إلى أين تذهب؟

كان خالي قد وصل مؤخراً، وبما أنه قد انخرط للتو في الجيش، متعاطفاً مع بعض دُوَقَيتِنا(*) القريبين والمشاركين في هذه الحرب، فقد زُوِّد بجواد وحامل درع في آخر القلاع التي بقيت في يد المسيحيين، وكان ذاهباً لتقديم نفسه إلى البلاط الامبراطوري.

قال حامل الدرع وهو متجهم الوجه:

ـ إنها تطير صوب أرض المعركة.

ـ سترافقنا طوال الطريق.

(*) جمع دُوق: والدوق هو نبيل أو شريف دون الأمير بدرجة.

كان الڤيسكونت على علم بأن طيران اللقالق في هذه البلدان هو مؤشر يجلب الحظ، ورغِب في أن يَظهر نفسه مغتبطاً لرؤيتها، لكنه كان يشعر رغماً عنه بأنه مضطرب الخاطر.

تساءل:

- قل لي يا كورسيو، كيف يمكن تفسير ذهاب طير الترامبوليبيري إلى أرض المعركة؟

ردّ حامل الدرع:

- حتى هذه هي طيور لاحمة، الآن، ومنذ أن أصاب الجدبُ الريفَ، ومنذ أن جفف القحط الأنهار، هنا حيث تظهر بعض الجثث، فقد حلت طيور اللقالق والنحام والغرو محلّ الغربان والأڤولتوي.

كان خالي في مقتبل العمر، وهي السن التي تبدو فيها الأحاسيس مضطربة، حيث لم يكن بمقدوره التمييز بين الخير والشر، السن التي تبدو فيها أية تجربة جديدة، حتى تلك الجنائزية واللاإنسانية، قلقة وممتلئة بحب الحياة.

تساءل وقد بدا شاحباً، لكن عينيه متألقتان:

- ولكن إلى أين ذهبت الغربان والأڤولتوي وباقي الطيور الجارحة؟

كان حامل الدرع جندياً ذا وجه فاحم، له شاربان، ولم يكن يرفع بصره عن الأرض.

- إنها هائجة تريد التهام ضحايا الطاعون، حتى الطيور لم تسلم من الطاعون.

ثم أشار بحربته إلى بعض الجنبات السوداء، والتي كان يمكن رؤيتها

بنظرة متفحصة والتخمين بأنها ليست صالحة للتنزه، بل هي مجرد أعواد وسيقان جوارح. قال كورسيو:

ـ الآن لم يعد من الممكن معرفة من مات قبلاً، هل هو الطير أم الإنسان؟ من الذي هاجم الآخر يريد تقطيع أوصاله؟

كان الكثير من السكان قد فرّ من جراء الطاعون المدمر، وقد توزعوا في الأرياف، وهناك كابدوا الشعور بالضيق والاحتضار. كان يمكن رؤية هياكل تائهة في السهول الجرداء، رؤية أجساد الرجال أو النساء وهي عارية، وقد تشكل عليها الدبل الذي هو أحد أعراض الطاعون. إنه شيء عسير على الشرح، كان الريش يكسو هذه الأجساد، وكأنما نبتت في هذه السواعد الهزيلة والأضلاع أجنحة وريش، كما بدا أن جيف الأفولتوي قد امتزجت ببقاياهم.

كانت آثار المعركة بادية على الأرض، وقد بدا التّوَغُّل بطيئاً، لأن الجوادين كانا يتعثران في اندفاعهما بسبب التخريب الذي أصاب الطريق.

سأل ميداردو حامل الدرع:

ـ ما الذي دها جوادينا؟

ردّ الآخر:

ـ سيدي.. لا شيء يثير أسى الجياد بمقدار شمها لرائحة أمعائها.

بالفعل، فقد كان ظاهر السهل مملوءاً بجيف الخيول، بعضها مستلق على ظهره وقد رفع أقدامه إلى السماء، والبعض الآخر كان منكباً وقد دسّ بوزه في التراب.

تساءل ميداردو:

- كورسيو لِمَ سقط الكثير من الجياد في هذه المنطقة بالذات؟

أوضح كورسيو:

- عندما يحس الجواد بدنو أجله فإنه يحاول المحافظة على أحشائه. بعضها تبسط بطونها على الأرض، والبعض الآخر ينقلب على ظهره لكي لا يتركها تندلق.

- إذاً فأكثر الموتى في هذه المعركة هم من الجياد؟

- يبدو أن سيوف الترك العريضة قد صُنعت خصيصاً لكي تخترق بطونها بضربة واحدة. بعد قليل سوف تشاهد أجساد الرجال، إنهم يصيبون الجياد في بداية الأمر، ثم يتناولون الفرسان بعد ذلك. ها هو ذا الموقع.

عند تخوم الأفق كانت تنهض قمم الخيام الأكثر علواً، ومن ثم بيارق الجيش الامبراطوري، ثم الدخان المتصاعد. وكلما غذًا السير حثيثاً كان يمكن ملاحظة أن قتلى المعركة الأخيرة قد دُفنوا جميعاً، إلا أنهم كانوا يشاهدون بعض أعضائهم وهي ملقاة على الأرض، وكان يمكن رؤية الأصابع بشكل خاص.

قال خالي ميداردو:

- في كل لحظة ثمة إصبع يرشدنا إلى طريقنا، ما معنى هذا؟

- ليغفر الله لي، كان الأحياء يقطعون أصابع الموتى لانتزاع خواتمهم.

- مَنْ هناك..؟

صرخ أحد الحرس، كان يرتدي معطفاً مغطى بالعفن والطحالب، وكأنه جذع شجرة سقط في مهب الريح.

هتف كورسيو: ليحيا التاج الامبراطوري المقدس.

كرر الحارس: الموت للسلطان، ولكني أرجو منكما أن تصلا إلى مركز القيادة، وأن تنبِّهوهم إلى نوبة الحراسة، ذلك أني أكاد أتجذر هنا.

راح الجوادان يخبان سريعاً هروباً من غيمة الذباب التي تجمعت في الحقل وهي تطنطن فوق جبال الغائط التي كانت تملأ المكان.

لاحظ كورسيو:

ـ مازال غائط الكثير من الشجعان على الأرض على حين صعدوا هم إلى السماء.

ثم أشار بيده عالياً.

عند مدخل المعسكر كان يمتد سرادق طويل، وفي أسفل السرادق جثت بعض النسوة بشعورهن المجعدة والكثيفة وهن يرتدين لباس البروكار. كانت نهودهن عارية، وقد استقبلنهما بصراخ وضحكات.

قال كورسيو:

ـ إنه جناح الحاشية، لا يشتمل أي جيش على أشياء حلوة كهذه.

كان خالي يقود جواده وقد استدار بوجهه نحوهن.

أضاف حامل الدرع:

ـ انتبه يا سيدي، إنهن جدّ قذرات، ويحملن عدوى الطاعون. حتى الأتراك لا يرغبون بسببهن. إنهن لسن ممتلئات بالقمل والبق وطفيليات التزكة وحسب، بل لقد بنت العقارب والرماري(*) أعشاشها حولهن.

مرّا من أمام بطاريات المدافع المنتشرة في الحقل. في المساء يبدأ رجال

(*) الرماري: أحد أنواع ما يسمى بأبي بريص (ضَبّ).

المدفعية بغسل منجنيقاتهم ومدافعهم التي غدت ساخنة من جراء استخدامها في الرمي أثناء النهار.

وصلت عربات محملة بالتراب، فانهمك رجال المدفعية بغربلتها.

أوضح كورسيو: لقد نفدت كميات التراب المهيأة للإطلاق، ولكن الأرض التي دارت فوقها المعركة غدت الآن مبللة بحيث أنهم لو رغبوا فسيكون بإمكانهم تعويض بعض الحمولات.

ثم جاء المكلفون بخدمة الجياد، حيث راح البيطريون، والذباب يتطاير من حولهم، يرفَؤُون جلد البهائم بأدوات خياطة. أحزمة وضمادات مغموسة بِقارٍ يغلي. كانت الجياد تصهل وترفس حتى البيطريين.

أما في المخيمات التابعة لسلاح المشاة، فقد أخذ الجنود يواظبون على أعمالهم المعتادة. كانت ساعة الغروب، وأمام كل خيمة جلس الجنود وهم حفاة وقد غمسوا أقدامهم في أحواض مملوءة بالماء الفاتر. كانوا قد تعودوا على نداءات الإنذار المفاجئة ليلاً ونهاراً. لذا فحتى وقت غمسِ أقدامهم في الماء بغية نيل قسط من الراحة، كانوا يعتمرون خوذاتهم، ويقبضون على رماحهم بأيديهم.

أما في الخيام المنتشرة في الأعالي، والتي كانت مزينة بالمنسوجات حتى غدت أشبه بأكواخٍ، فقد قعد الضباط وهم يكحلون آباطهم، ويستخدمون مراوح مدببة من أجل التمتع بهواء منعش.

قال كورسيو:

- إنهم لا يفعلون ذلك بتأنّث، بل على العكس، إنهم يحاولون الظهور بمظهر من يتعامل بيسرٍ مع صرامة الحياة العسكرية.

على الفور ذهب الفيسكونت ترّالبا لمقابلة الامبراطور، وفي جناحه

الخاص المملوء بالسجف وغنائم الحرب. كان جلالته منهمكاً في دراسة الخرائط الجغرافية وذلك بغية تحديد أماكن المعارك المقبلة.

كانت الطاولات مكتظة بالأوراق الملفوفة بشكل أسطواني، وكان الامبراطور منخرطاً في وضع الدبابيس التي راح يسلّها من مخدة صغيرة كانت قد غُرست فيها، وكان بعض المارشالات يسندونها بأيديهم. كانت الأوراق قد مُلئت بالدبابيس لدرجة أنه لم يعد من الممكن فهم أي شيء من كل هذا، ولكي يحاولوا قراءة أي شيء كان الأمر يتطلب نزع الدبابيس ومن ثم إعادتها إلى أمكنتها، وبين هذا النَّزع والإعادة، ولكي يحافظ كل من الامبراطور والماريشالات على أيديهم حرة، كانوا يلجؤون إلى وضع الدبابيس بين شفاههم، ويتخاطبون فيما بينهم بما يُشبه العواء. وما أن لمح الامبراطورُ الشابَّ وهو ينحني له، حتى نظر وهو ينزع الدبابيس من فمه إلى مَنْ حوله نظرة فيها استفسار عنه.

قدَّموه له:

ـ إنه فارس وصل للتو من إيطاليا، الڤيسكونت ترّالبا، إنه ينحدر من إحدى العائلات النبيلة الكبيرة في جينو فسّاتو.

ـ ليُسمى ملازماً في الحال.

خبط خالي المهماز في وضعية المنتظر، بينما كان الامبراطور يؤدي حركة ملكية، على حين التفّت الأوراق الجغرافية حول نفسها ثم راحت تدور في الأرض.

في تلك الليلة، ورغم أنه كان متعباً جداً، فقد آوى ميداردو إلى فراشه في ساعة متأخرة. كان يتمشى حول خيمته، وقد تناهت إلى مسامعه أصوات الحرس، صهيل الجياد، وصوت أحد الجنود وهو يتكلم

أثناء رقاده. حدق في سماء بوهيميا، متطلعاً إلى النجوم، راح يفكر في رتبته الجديدة، في معركة الغد، وفي الوطن البعيد.

ثم فكر بحفيف القصب الذي يتقاذفه تيار الهواء. لم يكن يحمل في ثنايا قلبه شعوراً بالحنين أو الشك أو الجزع، ذلك أن الأشياء مازالت بالنسبة له داخلية وغير قابلة للنقاش، حتى هو نفسه كان كذلك، لو أنه استطاع توقع الأشياء الرهيبة التي تنتظره، من الجائز أنه كان سيجد هذه الأحاسيس طبيعية وناجزة رغم كل ما تحمل من ألم.

جال ببصره نحو أطراف الأفق الليلي، حيث كان يتوقع وجود معسكر الأعداء، وبساعدٍ مضمومٍ راح يضغط كتفيه بيده وهو يشعر بغبطة، وقد ملأته الثقة بحقائق بعيدة ومختلفة، وبوجوده في وسطها. كان يشعر بدماء الحرب الضروس وهي تجري في آلاف الجداول المنتشرة على الأرض إلى أن تصل إليه، فيتركها تمسه، دون أن يحس بتوتر أو بشفقة.

2

في صباح اليوم التالي، وفي العاشرة تماماً، انطلقت شرارة الحرب، ومن فوق سرج جواده كان الملازم ميداردو يتأمل اتساع حشد القوات المسيحية، المتهيئ للهجوم، متجهاً بوجهه صوب رياح بوهيميا، رياح معبأة بروائح الحبوب وكأنها هواء مغبر.

هتف كورسيو الذي حصل على رتبة عريف، وقد وقف بجانبه:

ـ لا، لا تستدر إلى الوراء يا سيدي.

ولكي يُسوِّغ قوله هذا أضاف:

ـ يقال إن هذا يحمل نذير شؤم قبل بدء المعركة.

في الحقيقة، لم يكن راغباً في أن يصاب الڤيسكونت بالإحباط، وذلك عندما يفطن إلى أن الجيش المسيحي لم يكن يشتمل على أكثر من هذا الحشد المتواضع، وأن القوات الاحتياطية الداعمة لم تكن أكثر من فريق مشاة بسيط. لكن خالي كان ينظر بعيداً، نحو غيمة كانت تقترب من الأفق، وكان يقول في سِرّه: ها هي ذي، هذه الغيمة هي الأتراك، الأتراك الحقيقيون، وهؤلاء الذين يحيطون بي، وهم يقذفون التبغ من أفواههم ليسوا سوى المحاربين القدماء للمسيحية، وهذا البوق الذي ينفخ

فيه الآن ليس سوى الهجوم، إنه أول هجوم لي في حياتي، وهذا الدوي، وهذه الجلجلة، وهذا الشهاب الذي يملأ الأرض، وقد راحت تتأمله نظرات خاملة ومملوءة بالسأم، نظرات الجنود والجياد، إنه ليس سوى كرة المدفع، إنها الكرة الأولى المعادية التي ألتقي بها، وهكذا لن يأتي اليوم الذي أقول فيه، ها هي ذي، إنها الأخيرة...

وبينما كان يستلُّ سيفه، وجد نفسه يعدو عبر السهل، وعيناه مثبتتان على اللواء الامبراطوري الذي يظهر ثم يختفي بين الدخان، بينما كانت المدافع الصديقة تُشهر باتجاه السماء وعلى مستوى رأسه. أما تلك المعادية فقد أحدثت ثغرة في صفوف المسيحيين، وهي تمهد الطريق وقد ظللته بظلال مفاجئة. قال في سره «سوف أرى الأتراك، سوف أرى الأتراك». لا شيء يلذ للرجال سوى أن يكون لهم أعداء، ومن ثم يتطابق هؤلاء الأعداء مع الصور التي يشكلونها حولهم.

إنه يراهم، الأتراك، اقترب اثنان منهم، بالضبط من هناك، بجياد متدثرة، ودروع صغيرة ومستديرة مصنوعة من الجلد، ثياب ذات خطوط سوداء، زعفران، عمائم. الوجه بلون المغرة(*)، والشاربان يشبهان شاربي رجل من ترّالبا يقال له «ميكه التركي». أحد التركيين يموت، والآخر يقتل رجلاً آخر، ولكن جموعهم التي تقترب كانت غفيرة جداً، وكان القتال قد تحول إلى صراع بالسلاح الأبيض. لكن رؤية تركيين كانت كمن يرى سائر الأتراك، هذان الإثنان كانا جنديين، وكانت كل هذه الأشياء جزءاً من تجهيزات الجيش. كانت وجوههم ناضجة وصلبة كوجوه الفلاحين، كانت تكفي رؤية ذلك للقول بأن ميداردو قد رآهم، وأن باستطاعته

(*) المغرة: صباغ ذو ألوان مختلفة كالأحمر والأصفر..إلخ.

العودة إلينا الآن في ترّالبا، عندما يحين أوان مرور طائر السُّمان، لكنه على العكس ظل ثابتاً في خِضَمِّ المعركة، يركض هنا وهناك محاولاً تجنب ضربات السيوف العريضة. وها هو ذا الآن، ما أن يرى تركياً راجلاً حتى يسارع إلى قتله على الفور، ثم إنه ما أن يقوم بذلك حتى يهرع للقاء أحد فرسان الأتراك، ويصيبه ما أمكن بالأذى، ذلك أنهم كانوا صغاراً، وكانوا يندسون بين الجياد وهم يمتشقون سيوفهم العريضة، ومن ثم يقطعون الجياد تقطيعاً.

يتوقف جواد ميداردو بسيقانه العريضة، فيتساءل الڤيسكونت: ما الذي حدث؟

يرد كورسيو وهو يشير نحو الأسفل: انظر هناك.

كانت أحشاؤه تتدلى نحو الأرض، وكان الحيوان المسكين يحدق في السماء، نحو صاحبه، ثم ما يلبث أن يخفض رأسه وكأنه يرغب بالتهام أمعائه، لكن هذا لم يكن سوى خيلاء بطولية، ذلك أنه سرعان ما هوى ثم مات. الآن لقد غدا ميداردو دي ترّالبا راجلاً.

قال كورسيو: خذ جوادي أيها الملازم.

لكنه لم يفلح أبداً في كبح جماح الجواد، ذلك أنه مالبث أن هوى من على السرج، لقد أصيب بسهم تركي، وها هو ذا الجواد يعدو سريعاً على غير هدى.

ـ كورسيو.

هتف الڤيسكونت وهو يدنو من حامل الدرع الذي كان يئن وهو ملقىً أرضاً.

قال حامل الدرع:

ـ لا تفكر فيّ الآن يا سيدي. آمل أن يكون مازال لديهم معقِّمٌ لهذا الجرح في المستشفى، إن كل جريح يحتاج إلى قصعة من ذلك.

قذف خالي ميداردو بنفسه وسط المعمعة. لم تكن نتائج المعركة واضحة بعد، ولكن في ظل كل هذا الاضطراب بدا أن المسيحيين يكسبون المعركة، بالتأكيد؛ لقد زعزعوا تنظيم الأتراك، وبدا أنهم يحتلون مواقع جديدة. وكان خالي وبعض البواسل الآخرين قد ألقوا بأنفسهم تحت بطاريات المدافع المعادية، مما دفع الأتراك إلى التحرك سريعاً وذلك لكي يحافظوا على موقع المسيحيين في مرمى نيرانهم. كان ثمة اثنان من قاذفي المدافع الأتراك يحركون أحد المدافع على عجلات، ولمّا كانا بطيئين جداً، وملتحيين، وملتفين جيداً بمعطفيهما فقد بدا كأنهما من كوكب آخر. قال خالي: الآن سوف أصل هناك، وأعالجهما.

وهكذا، كان متحمساً جداً، لكنه غير خبير بما فيه الكفاية، ذلك أنه لم يَدُر بخاطره أن الاقتراب من المدافع يجب أن يتم من الجوانب، أو من الطرف الآخر من الهضبة. لذا فقد ضرباه بطلقة مدفع، فتطاير ميداردو دي ترّالبا في الهواء.

في المساء، وعند حلول الهدنة بين الطرفين المتحاربين، اتجهت عربتان لنقل أجساد المسيحيين الذين سقطوا في أرض المعركة، كانت إحدى العربتين مخصصة لنقل الجرحى، والأخرى مخصصة لنقل القتلى. كان قد تم إنجاز الخيار الأول هناك في أرض المعركة: «خذ أنت هذا وسآخذ أنا ذاك». كان ثمة اعتقاد بإمكانية العثور على ناجين، لذا فقد وُضِع الجرحى في العربة. أما هناك حيث وجدت بقايا من قطع آدمية وأجزاء منها فقد وُضِعت في عربة الموتى ذلك ليصار إلى دفنها، أما ذاك الذي لم يتبق من جثته شيء فقد تُرك للقالق. في تلك الأيام، ولما كانت الخسائر في تكاثر

مستمر فقد كان ثمة مَيْلٌ إلى الإكثار من عدد الجرحى، لذا فقد اعتبرت بقايا ميداردو من ضمن الجرحى ووُضِعت في تلك العربة.

الخيار الثاني كان يتم في المشفى، وذلك أنه بعد المعركة يبدو المشفى في صورة أشد فظاعة من المعارك نفسها. على الأرض كان يسجى صف طويل من النقالات وقد حُشِر المصابون بداخلها، وتعالى هياج الأطباء من حولهم، وهم يحملون الملاقط، والمناشر، وإبر الخياطة، والأعضاء المبتورة، ولفائف من القنب، ومن ثم، ميت بعد ميت. كانوا يجهدون في سبيل إحياء من يمكن إحياؤه؛ اقطع هنا، خيّط هناك، سدّ الثغرات. كانوا يقلبون الأوردة ثم يعيدون وضعها في مكانها الطبيعي وقد حُشيت بالقنب أكثر من الدم الجاري فيها، ولكنها مرقعة ومغلقة. وعندما يموت مريض ما، كانوا يأخذون منه كل ما هو صالح فيه وذلك لكي يصلحوا ما فسد لدى مريض آخر، وهلم جرّا. وكانت الأمعاء هي أكثر ما يثير في داخلهم شعوراً بالارتباك، فعندما كانت تلتف على بعضها البعض يحارون في كيفية إعادتها إلى سابق عهدها. وعندما سُحب غطاء السرير، بدا جسد الفيسكونت وقد تشوّه بشكل فظيع؛ كانت تنقصه ذراع وساق، وليس هذا وحسب، بل كل جزء من الصدر ومن الحوض مما كان يربط الذراع بالساق، كل هذا كان قد فُقِدَ تماماً. لقد نالت منه ضربة المدفع تلك؛ من رأسه كان قد تبقّى عين وأذن ووجنة واحدة ونصف أنف ونصف فم، ونصف دماغ ونصف جبهة؛ أما من الطرف الآخر من رأسه فقد تبقى جزء منه، ولنختصر الأمر ونقرر بأن ما تبقى منه هو نصفه وحسب، نصفه الأيمن وقد حُفظ بشكل جيد، ودون أي خدش ما، فقط ذلك الجزء الذي كان يربطه بالطرف الأيسر تحول إلى فتات.

قال الأطباء وهم يشعرون بالسعادة: أية حالة هذه!

إن لم يمت في أثناء نقله فسيكون بإمكانهم إنقاذه. أخذوه جانباً، بينما كان الجنود المساكين يموتون من جرّاء تعفن الدم بسبب سهم في الذراع. كان الأطباء منهمكين بمعالجة حالته الغريبة تلك، يخيطون، يثابرون مجاهدين، يعيدون صياغة كل عضو مصاب فيه؛ من يدري ما الذي كانوا يفعلونه. ولكن كان حدثاً هاماً أن يظهر خالي في الغد وهو بعينٍ واحدةٍ، ونصف فم، كان يبسط منخره ويتنفس. لقد قاومتْ بشدةٍ أليافُ ترّالبا، وها هو ذا الآن حي ومشطور إلى نصفين.

3

عندما عاد خالي إلى ترّالبا، كنت قد بلغت السابعة أو الثامنة من عمري. كان الوقت مساءً، وقد هبط ليلٌ بهيم، وكان ذلك في تشرين الأول وقد غُطيت السماء بالسُّحب المدلهمة. جنينا العنب في النهار، وعبر صفوف الأشجار شاهدنا أشرعة سفينة تسبح في البحر الرمادي وقد راح العلم الامبراطوري يتمايل. وكلما تُشاهَد سفينة يقول قائل: ها هو ذا ميداردو يعود، ولم يكن مدعاة ذلك أن صبرهم في انتظار عودته كان في سبيله إلى النفاد، ولكن في كل الأحوال كانت تدفعهم إلى ذلك رغبة الانتظار وحسب. هذه المرة كان الأمر صائباً. ففي أحد المساءات صرخ أحد الشبان ويدعى فيورفيرو وهو يعصر العنب في الدِّنّ ـ آه. هناك في الأسفل، كان الظلام حالكاً، وقد لمحنا في عمق الوادي صفاً من الشموع المضيئة على ظهر بغل، وعندما عبر الجسر استطعنا تمييز النقالة التي كانت محمولة على الأكتاف، لم يكن ثمة أي مجال للشك، إنه الڤيسكونت وقد آب من الحرب.

كان ثمة صوت ينبعث من الوادي، وفي ساحة القصر تجمهر الناس، الأهل، الأقارب، مشاهدون فضوليون، صيادون، ثم بعض الجنود. لم يكن الڤيسكونت العجوز إيولغو والد ميداردو حاضراً. والحقيقة إن جدِّي إيولغو لم ينزل أبداً حتى إلى الساحة منذ أمد طويل. لقد أرهقته حادثات الدهر،

فتنازل عن منصبه هذا إلى ولده الذَّكَر الوحيد قبل أن يغادر هذا الأخير إلى الحرب. ها قد غدا الآن غرامه بالعصافير التي كان يربيها في قفص كبير، غراماً مطلقاً، حتى أنه حمل سريره إلى حيث تقطن هذه العصافير وقد انغلق على ذاته، ولم يعد يخرج لا ليلاً ولانهاراً. كانوا يحملون إليه الطعام مع غذاء العصافير، ويدخلونه إليه عبر قفص العصافير. وهكذا راح إيولغو يتقاسم كل شيء مع تلك المخلوقات وهو يمضي الوقت يداعب ظهور الحجل والحمام وهو ينتظر عودة ولده من الحرب.

في ساحة قصرنا لم يسبق لي أن شاهدت جمعاً غفيراً من الناس كهذا الحشد، كان قد مرَّ زمن طويل ـ وقد سمعت بهذا عن طريق الرواة ـ حيث كانت تقام الاحتفالات، كما سمعت عن الحروب التي كانت تقوم، وقد تنبهت وللمرة الأولى كيف كانت الأسوار والقلاع قد اهترأت، وكيف غدت الساحة موحلة، حيث كنا نقدم الأعشاب إلى الماعز ونملأ معالف الخنازير. كان الجميع، وهم ينتظرون، يتجاذبون أطراف الحديث حول كيفية عودة الڤيسكونت ميداردو. كان نبأ إصابته التي سببها له الأتراك في الحرب قد سبق حضوره إلى هنا، ولم يكن ثمة من هو قادر على تحديد نوعية إصابته بدقة. سمعتهم يتحدثون عن ندبٍ ما، الآن وقد جاء محمولاً على ظهر نقالة فقد تهيأ الجميع لما هو أسوأ من ذلك. وُضِعت النقالة على الأرض، وفي عمق الظلام كان يمكن لمح بؤبؤ ما وهو يلتمع. اقتربت المربية العجوز سيباستيانا، ولكن، ومن خلال تلك الظلال، ارتفعت يدٌ رافضة بحركة جدّ مرّة، ومن ثم كان يمكن مشاهدة الجسد في داخل النقالة، متكئاً على عصاه. كان يغطيه رداء أسود ذو قبعة من أعلى رأسه وحتى أسفل قدمه، وكان الرداء قد أُلقي إلى الوراء من الجهة اليمنى وهو يغطي نصف وجهه، ويغطي الشخص المتكئ على العصا، بينما بدا الطرف الأيسر مختبئاً وقد التف بأذيال الرداء وثناياه.

وقفنا ننظر إليه وقد شكلنا دائرة حوله، وكنا واجمين، لا ينبس أحد ببنت شفة، لكنه ربما ومن خلال تلك العين الثابتة النظر لم يكن يرى أحداً منا على الإطلاق، كانت لديه رغبة في الابتعاد عنا.

هبت ريح قادمة من جهة البحر، فتصاعد أنين ما من غصن في أعلى شجرة تين، كان رداء خالي يتأرجح، وكانت الريح تزيده انتفاخاً، كان يمسك به وكأنه خمار، وربما قيل بأنه كاد يتجاوز الجسد، أو على العكس، فإن هذا الجسد لم يكن موجوداً على الإطلاق. كان الرداء خاوياً وكأنه يلفّ رضيعاً، ثم بعد ذلك، وبينما كنا نُمعن النظر، شاهدناه وكأنه يكاد يلتصق به، كأنه سارية بيرق ما، هذه السارية كانت تشكل الكتف، الساعد، الورك، ثم الساق وكل ما هو متكئ على العصا، أما الباقي فلم يكن موجوداً.

كانت العنزات تحدق في الفيسكونت بنظرة ثابتة وغير ذات معنى، وكل منها تدور في وضعيات مختلفة، لكنها راحت تصطدم بالأسيجة التي تحيط بها، وكانت ظهورها بارزة في رسم أشبه بالمثلثات الغريبة والمستقيمة. أما الخنازير فقد كانت أكثر تهيؤاً وحساسية، تزعق وهي تصدم بطون بعضها ببعض. أمّا نحن فلم نكن قادرين على إخفاء دهشتنا ورعبنا.

ـ ولدي.

صرخت المربية وهي ترفع ذراعها، ثم أردفت:

ـ أيها المسكين.

أما خالي وقد شعر بأسى لأنه قد سبب لنا كل هذا الانفعال، فقد قدم عكازه على الأرض نحو الأمام، وبحركة رصينة دفع نفسه باتجاه مدخل القصر. ولكن عند سلم المدخل كان يجلس حاملو النقالة وقد

تصالبت سيقانهم، كانوا شبه عراة، آذانهم من ذهب، ورؤوسهم حليقة وقد نمت عليها ذيول الشعر. نهضوا، وقال أحدهم، وكان ذا ذؤابة ويبدو كأنه زعيمهم:

ـ نحن ننتظر أجرتنا يا سيدي.

تساءل ميداردو: كم؟

قال الرجل ذو الذؤابة: أنتم تعرفون كم يكلف نقل رجل فوق نقالة...

نزع خالي كيساً صغيراً كان معلقاً في نطاقه، ثم ألقاه عند أقدام الحمال، فصرَّ صريراً؛ قدر هذا الأخير ما بداخل الكيس ثم قال:

ـ ولكن هذا أقل بكثير مما هو متفق عليه يا سيدي!

قال ميداردو بينما كانت الريح ترفع ذيل ردائه: إنه النصف.

تجاوز ميداردو الحمّال وهو يقفز قفزات صغيرة بقدمه الوحيدة صاعداً السلالم، ليدلُفَ من الباب العريض الذي كان يفضي إلى داخل القصر، وهو يخبط مصراعي الباب بضربات ثقيلة من عكازه، ثم أغلق الباب محدثاً دوياً. ولما كان الباب مازال مفتوحاً فقد خبطه بعنف وغاب عن أنظارنا، ومن الداخل كان مايزال من الممكن سماع خبط الأبواب، ووقع قدمه، وصوت العكاز وهو يتحرك في الممرات متجهاً نحو الجناح المخصص لإقامته الشخصية. كان الأب قد وقف خلف مشربية العصافير بانتظار رؤية ولده. لكنَّ ميداردو لم يمرّ حتى لتحيته، بل دخلَ وأغلق الباب على نفسه وظل وحيداً في غرفته. لم يكن يريد أن يُظهر نفسه، أو حتى أن يجيب على أسئلة المربية سيباستيانا التي ظلت لفترة طويلة أمام الباب وهي ترثي لحاله.

كانت العجوز سيباستيانا امرأة كبيرة، متهيجة الأعصاب وغامضة، وكان وجهها أحمر وخالياً من التجاعيد، باستثناء تلك التي تخفي العينين. لقد أرضعت كل شبان عائلة ترّالبا، ورافقت كل عجائزهم إلى أَسِرَّتهم، وأغمضت عيون كل الموتى، وهاهي ذي الآن تروح وتجيء بين مقصورتَيْ الفيسكونت ووالده اللذين انغلقا على ذاتيهما وهي لا تدري كيف يمكنها مساعدتهما.

في اليوم التالي عدنا إلى جني العنب وعصره، ولم يكن ميداردو قد أظهر أية إشارة تدل على أنه مازال حياً، لكننا لم نستشعر أية سعادة أو بهجة، وفي المعصرة لم يكن يدور أي حديث خارج إطار عودته، ولم يكن مدعاة ذلك أنه يملأ قلوبنا بشعور خاص تجاهه، وإنما كان الموضوع برمته مثيراً وغامضاً. وحدها المربية سيباستيانا بقيت في القصر، وهي تتلصص بانتباه على كل صوت.

ولكن العجوز إيولغو، وقد لاحظ أن ولده عاد حزيناً ووحشي السلوك، كان قد درب أحد طيوره الغالية عليه وهو الـ «أڤيرلا» على الطيران حتى يبلغ الجناح الذي كان يقيم فيه ميداردو، وعلى الدخول إلى غرفته عبر إحدى النوافذ الصغيرة. في ذلك الصباح فتح العجوز الباب للأڤيرلا، وتابع ببصره طيرانه حتى وصل إلى نافذة ولده، ثم عاد ينثر علف الطيور للعقاعق ولبعض الطيور المغردة وهو يقلد أصواتها.

بعد قليل، ومن هناك، تردد صدى دويّ لشيء يخبط النوافذ بعنف. خرج العجوز، وهناك، عند إحدى الحواف وجد طائرَهُ مقتولاً. حمل العجوز الطائر بيده، ولاحظ أن أحد جناحيه كان قد كسر كما لو أن أحداً ما حاول انتزاعه، كما لاحظ أن إحدى ساقيه قد بترت، وإحدى

عينيه قد فُقِئت. ضمّ العجوز الأفيرلا إلى صدره ثم أجهش في البكاء.

في اليوم نفسه أوى إلى فراشه، وقد لاحظت عائلته هناك عند مشربية قفص الطيور أنه كان بحالٍ سيئة، لكن أحداً ما لم يكن قادراً على الذهاب للعناية به، لأنه أغلق الباب على نفسه وخبأ المفاتيح، وتحوّل سريره كانت تطير العصافير التي ما انفكت تتقافز حوله منذ أن اضطجع، ولم تكف أبداً عن خبط أجنحتها.

في صباح اليوم التالي، وقفت المربية، متجهة ببصرها إلى مشربية الطيور، فوجدت العجوز إيولغو ميتاً. كانت الطيور تحيط بسريره وكأنها تقف على جذع شجرة يطفو على سطح البحر.

4

بعد موت والده، بدأ ميداردو بالخروج من القصر. كانت المربية سيباستيانا أول من تنبه لذلك. ففي إحدى الصباحات، عندما وجدت الأبواب مفتوحة على مصاريعها، والغرف خالية، أرسلت فريقاً من الخدم لتعقب آثار الڤيسكونت في القرية. كان الخدم الذين هرعوا منتشرين في كل مكان قد مروا في طريقهم من أمام إحدى أشجار الإجاص المكتظة بالثمار التي مازال طعمها حامضاً.

هتف أحد الخدم: انظر هناك إلى الأعلى.

بدا الإجاص كما لو أنه يتدلى من السماء التي كانت تؤذن ببزوغ الشفق وتشكل خلفية له. وما أن شاهدوا هذا المنظر حتى أُخِذوا به، لأن الإجاصات لم تكن كاملة. كانت ثماراً مقطوعة من النصف، على حين ظلت معلقة على غصنها. من كل إجاصة كان قد تبَقَّى نصفها الأيمن (أو الأيسر وذلك حسب المنطقة التي تُشاهد من خلالها، لكنها كانت جميعها من القسم نفسه). أما النصف الآخر من الثمرة فقد اختفى، أو قطع، أو ربما نُهِش.

قال أحد الخدم: لقد مرّ الڤيسكونت من هنا.

بالتأكيد فبعد فترة طويلة من العزلة، ربما شعر بالجوع في تلك الليلة، مما حدا به للصعود إلى أول شجرة صادفها وأكل الإجاصات.

تابعوا سيرهم، وفوق إحدى الصخور التي مرّوا بها في طريقهم شاهدوا نصف ضفدع وهو يقفز. وبفضل طبيعة الضفادع فإن الضفدع كان مايزال حياً: «إننا نسير في الاتجاه الصحيح». ثم تابعوا سيرهم، لكنهم تاهوا بسبب عدم رؤيتهم لأنصاف تفاحات بين الأوراق، لذا فقد توجّب عليهم العودة إلى الوراء، لأنهم لم يعثروا على الڤيسكونت.

وهكذا، فبينما كانوا يمرون من الحقول إلى الغابة شاهدوا فطراً مشطوراً إلى قسمين. شاهدوا فطراً خنزيرياً(*)، ثم واحداً آخر، ثم بوليتو(*) أحمر ساماً؛ ورويداً رويداً كانوا، أثناء توغلهم في الغابة، يمرّون بواحدٍ آخر بين الفينة والأخرى. ذلك الذي كان ينتأ من الأرض بنصف قامة، ويظهر بنصف مظلة، كان يبدو أنه قُطِعَ بشيء حادّ، ومن النصف الآخر لم يكن يظهر أي بوغ. كان عبارة عن فطرٍ من أي نوع، فيشيه، أفولي، أغاريشي(*)، وكانت تلك الأنواع السامة أكثر تعرضاً للشطر من تلك التي تؤكل.

وبينما كانوا يتابعون هذه الآثار المُبعثرة، وصل الخدمُ إلى الحقل المسمى «ديلا موناكه» حيث كان ثمة مستنقع وسط الأعشاب. كان الشفق قد يزغ، وفوق طرف المستنقع لاحت الصورة الضيقة لميداردو وهو ملتف بردائه الأسود؛ وكانت صورته تنعكس على صفحة الماء، هناك، حيث انتشر فطر أبيض أو أصفر أو ذلك الذي اكتسى بلون الأرض. فوق الماء كان الفطر يظهر كاملاً وكان الڤيسكونت يحدق به. وقد اختبأ

(*) خنزيري، بوليتو، فيشه، أفولي، اغاريشي: من أنواع الفطر.

الخدم عند الضفة الأخرى للمستنقع، ولم يجرؤوا على الإتيان بأية حركة، أو قول أي شيء. ولبثوا يحدقون في الفطر الطافي فوق سطح الماء، لكنهم سرعان ما تنبهوا إلى أنه فطر من النوع الذي يؤكل، إذاً فأين هو ذلك السام؟ إذا لم يكن قد أُلقي به في المستنقع، ما عساه يكون قد فعل به؟ وهكذا هرع الخدم راكضين نحو الغابة، لكنهم لم يذهبوا بعيداً، ذلك أنهم التقوا بصبي يحمل كيساً، وقد وُضِع في داخله كل أنصاف الفطر السام. كنت أنا ذلك الصبي. ذلك أني، وبينما كنت ألعب وحيداً حول حقل «ديلا موناكه» ثار في داخلي رعب مفاجئ عندما شاهدته يخرج من بين الأشجار، وهكذا التقيت بخالي الذي كان يقفز على قدم واحدة في المرج، وتحت ضوء القمر، وهو يحمل كيساً معلقاً بذراعه.

ـ مرحباً يا خالي.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أَقْدر فيها على قول هذا له.

أما هو فقدا بدا مغتبطاً جداً لرؤيتي، قال موضحاً:

ـ إني أذهب بحثاً عن الفطر.

ـ وهل جمعت شيئاً منه؟

قال خالي: انظر.

ثم جلسنا عند ضفة ذلك المستنقع؛ كان يبحث عن الفطر، ويُلقي ببعضه في الماء، في حين يحتفظ بقسم منه في كيسه.

قال وهو يعطيني الكيس الذي حمل فيه الفطر الذي سبق له أن جمعه:

ـ إذهب أنت لتقلي هذا.

أما أنا فقد كنت أرغب في سؤاله عن سبب وجود أنصاف القطع من الفطر في كيسه، لكنني فطنت إلى أن سؤالاً من هذا النوع قد يكون جِدّ مهيبٍ، لذا فقد هرعت راكضاً بعد أن شكرته، وقد التقيت في طريقي بالخدم بينما كنت أذهب لكي أقلي الفطر، عندها علمت بأنه كان فطراً سامّاً.

وعندما رويت كل هذا للمربية سيباستيانا قالت: لقد رجع إلينا القسم الشرير من ميداردو، من يدري؟ اليوم تجري محاكمة.

في ذلك اليوم، كانت ستجري محاكمة لعصابة من قطاع الطرق كان قد أُلقِي القبض على أفرادها في يوم سابق من قبل شرطة القصر. هؤلاء اللصوص كانوا ينتمون إلى مقاطعتنا، لذا فقد توجب على الڤيسكونت أن يقاضيهم. عقدت الجلسة، وكان ميداردو جالساً على مقعده جلسة غير مستقيمة، وكان يقضم أظافره. جيءَ باللصوص وهم مقيدون، وكان زعيم العصابة هو ذلك الشاب المدعو فيورفييرو، الذي كان أول من تنبه إلى قدوم النقالة التي حملت الڤيسكونت بينما كنا نعصر العنب.

جِيْءَ بالمتظلمين، وكانوا مجموعة من الفرسان التوسكانيين، والذين كانوا يجتازون المقاطعة عندما هاجمهم فيورفييرو وعصابته وسرقوهم. كان فيورفييرو يدافع عن نفسه قائلاً بأنه شاهدَ هؤلاء الفرسان وهم يصطادون صيداً محظوراً في أرضنا، فأوقفهم وجردهم من أسلحتهم، وهو على قناعة تامة بأنهم مجرد صيادين، وقد تجرأ على فعل ذلك وهو يرى أن الشرطة لم تحرك ساكناً بشأن قضيتهم. وقيل في المحاكمة بأن حالات السطو المسلح في تلك الأيام كانت مُباحة، لذا فإن القانون كان

رؤوفاً بهم في حالات كهذه، ثم إن مناطقنا كانت مناسبة جداً لاحتراف السطو؛ وهكذا فإن كل فرد من أعضاء عائلتنا سرعان ما ينضم إلى إحدى عصابات السطو تلك، وبشكل خاص في الأيام الشحيحة؛ ولن أتحدث عن الصيد المحظور الذي كان يُعد جريمة لا يمكن تصور أبعادها.

لكن مخاوف المربية سيباستيانا كانت قد تأصلت، فقد حكم ميداردو على فيورفييرو وكل عصابته بالموت شنقاً، متهماً إياهم بالسطو المسلح غير المشروع. ولكن لما كان المسروقون قد اتُّهموا بالقيام بالصيد غير المشروع فإنه حكم عليهم أيضاً بالموت شنقاً. ولكي يعاقب رجال الشرطة الذين تدخلوا في وقت متأخر، ولم تكن لديهم القدرة على توقع الشُّرور التي اقترفها كل من الصيادين واللصوص، لذا فقد حَكَمَ عليهم هم أيضاً بالموت شنقاً. وقد بلغ عدد الجميع عشرين شخصاً.

أثار فينا هذا الحكم الجائر شعوراً بالمرارة والألم، ولم يكن مدعاة ذلك شفقتنا على الرجال المهذبين التوسكانيين، الذين لم يسبق لأحد أن رآهم في هذه الأنحاء، بل كان عائداً إلى حُزننا على العصابة ورجال الشرطة الذين كانوا بشكل عام محبوبين ومعروفين من قبل الجميع.

كانت قد أُسندت إلى المعلم بيتروكيودو، وهو حِرفي ونجار، مهمة نصب المشنقة. كان عاملاً مُجداً وذكياً، وكان سريع الاهتمام بكل عمل يُسند إليه. لكنه كان يقوم بذلك وهو يكابد الشعور بألمٍ ممضٍّ، ذلك أن اثنين من المحكومين كانوا من أقربائه. وهكذا قام بنصب المشنقة على إحدى الأشجار، وقد جاءت بحيث أن الحبال المضفورة كانت تتدلى من آلة واحدة. كانت مؤلفة من جهاز كبير ومتقن الصنع، بإمكانه أن يشنق أكثر من شخص واحد من المحكومين في وقت واحد. استغل الڤيسكونت

المناسبة لشنق عشرة من القطط بشكل متناوب مع كل لصين، وهكذا أصبحت الجثث جِيَفاً، وزادت جِيَفُ القطط الطين بلَّة، لأن كل تلك الجثث كانت قد تُرِكت معلقة لمدة ثلاثة أيام، لدرجة أن أحداً منا لم تكن لديه الشجاعة على النظر إليها، وسرعان ما تنبه الجميع إلى فظاعة ذلك المنظر مما حدا بأولي الأمر إلى نزع الآلة في أقرب فرصة. أما نحن فكان الأمر يثير فينا شعوراً بالأسف والأسى، وحتى حُكْمنا الذي أصدرناه بحقهم كان قد تحوَّل إلى مجرد أحاسيس مفككة.

5

بالنسبة لي كانت هذه هي الأيام السعيدة، وقد كنت أمضي الوقت كله في الغابة بصحبة الدكتور تريلاوني ونحن نبحث عن قواقع لحيوانات بحرية تحجّرت. كان الدكتور تريلاوني انكليزياً، وقد وصل إلى شاطئنا بعد حادثة غرقٍ ونجاته ممتطياً ظهر برميل. كان قد أمضى معظم حياته طبيباً للبواخر، وقام برحلات طويلة وخطرة. كانت إحدى هذه الرحلات هي التي كان فيها بصحبة القبطان كوك. لكنه لم يكن قد رأى شيئاً من العالم، ذلك أنه كان يمضي معظم وقته وهو منخرط في لعب الورق. وما أن تمت عملية انتشاله وإنقاذه من قِبَلنا؛ حتى انهمك في شرب نوع من أنواع النبيذ المنتشر عندنا والذي كنا نسميه «كانكارونيه»، وهو أشد أنواع النبيذ حموضة وتعتيقاً. ثم إنه لم يعد قادراً على تركه، لذا فقد كان يظهر دائماً وهو يحمل في نجاده مطرة مملوءة بهذا النبيذ. كان قد استقر في ترّالبا، وغدا طبيبنا، لكنه لم يكن يهتم بالمرضى، بل باكتشافاته العلمية التي كانت تجعله دائم التجوال ـ وأنا بصحبته طبعاً ـ في الحقول والغابات ليل نهار. وقد استطاع في البدء اكتشاف مرضٍ يصيب الصراصير، لكنه كان مرضاً نادراً، ذلك أنه أصاب صرصاراً واحداً من بين آلاف الصراصير، ولم يكن يبدو أنه يؤذيه، لكن الدكتور تريلاوني كان يبحث في كل الصراصير مجاهداً في سبيل الوصول إلى العلاج الملائم. ومن ثم

تحول إلى دراسة المؤشرات التي كانت تدل على أن أرضنا كانت مغطاة بمياه البحر، لذا فإننا كنا نذهب محملين بالحصى والسيلوكونات التي كان الدكتور يقول بأنها كانت في زمن ما أسماكاً. وفي النهاية كان غرامه الأخير منصباً على تلك الحشرات المُضيئة(*). كان يجاهد في سبيل الحصول عليها وذلك ليمسك بها ويحتفظ بها، ولهذا الهدف كنا نقصد مقبرتنا ونمضي الليل بطوله فيها ونحن ننتظر بين القبور الترابية والأعشاب، أن تظهر بعض أضوائها الخافتة والغامضة بشكل يسمح لنا بجَرِّها نحونا، حيث كنا نركض خلفها ونمسك بها دون أن تنطفئ، وكنا نستخدم في سبيل ذلك بعض الأدوات: أكياساً، ثم زجاجات، دناناً كبيرة، تنانير، مصافي. كان الدكتور تريلاوني قد أقام في كوخٍ قريبٍ من المقبرة، كان يُستخدم فيما مضى كمأوى لحفار القبور، في تلك الأيام التي كانت مملوءة بالحروب والأوبئة، ذلك أن الوقت كان ملائماً بالنسبة لرجل من هذا النوع للقيام بمثل هذه المهام. هناك أقام الدكتور مختبره، حيث كان يمكن مشاهدة أباريق من مختلف الأجناس لحفظ مثل هذه الحشرات، والشباك التي تشبه شباك الصيد ليُمسك بها، ومن ثم أنابيب وبوتقات كان يحتفظ بها في داخلها بما يشبه جو المقبرة وأتربتها، ومن عفونة الجثث حيث كانت تنبعث تلك الأضواء المتوهجة. لكن الدكتور لم يكن رجلاً من ذلك النوع الذي يقضي معظم وقته في مختبره وهو يدرس ويبحث، كان سرعان ما يكف عن هذا ويخرج، ثم نذهب سوية لتصيد ظواهر طبيعية جديدة.

أما أنا فكنت حراً كالهواء، ذلك أنه لم يكن لديَّ والِدان، ولم أكن

(*) الحشرات المُضيئة: هي حشرات صغيرة تصدر ضوءاً في الليل وهي متنوعة ولها أسماء متعددة كالحباحب واليراع وسراج الليل. م.

أنتمي لا إلى طبقة الخدم، ولا إلى طبقة السادة، وإنما كنت مجرّد جزء من عائلة ترّالبا فقط، بسبب اعتبار قديم بذلك، لكني لم أكن أحمل اسمهم ولم يهتم مخلوق بتهذيبي وتربيتي. كانت المسكينة أمي ابنة الڤيسكونت إيولغو والأخت الكبرى لميداردو، لكنها كانت قد لطخت شرف العائلة عندما فرّت بصحبة صياد أصبح فيما بعد والدي. كنت قد وُلِدتُ في كوخ الصيادين، في الأرض البكر التي تقع تحت الغابة، ثم بعد ذلك بقليل قُتل والدي أثناء شجار، وقضى مرض البلاغرا على والدتي التي بقيت تعيش في ذلك الكوخ البائس. أما أنا فقد احتضنني القصر، ذلك لأن جدي إيولغو قد أشفق على حالي. عندئذٍ غدوت من مسؤوليات المربية سيباستيانا. عندما كان ميداردو صبياً ولم أكن قد تجاوزت في السن بضعة أعوام، أذكر أنه في بعض الأحيان كان يشركني في اللعب بأشيائه الخاصة كما لو كنا في وضع متساوٍ. ثم بَعُدَت المسافة بيننا، وبقيت أنا في جناح الخدم. الآن أجد في الدكتور تريلاوني صديقاً لم أكن لأحلم أن ألتقي بمثله في حياتي.

كان الدكتور يبلغ الستين من العمر، لكنه كان طويلاً قياساً إليّ، ذا وجه متغضن كأنه حبة كستناء جافة. وكان يعتمر قبعة فوق باروكته. أما ساقاه اللتان كانتا منغمستين في حذاء فرسان ينتعله ويصل حتى فخذيه، فكانتا تبدوان أكثر طولاً. كانتا غير متناسقتين كأنهما ساقا صرصار، أو ربما كانتا كذلك بسبب الخطوات الطويلة التي كان يقوم بها أثناء سيره. كان يرتدي رداءاً بلون الحمام، ذا زركشة حمراء اللون، وفوق ذلك كان يرتدي نجاداً ملتفّاً حول خصره يضع فيه أشياءه، وكان من بينها النبيذ.

كان ولعه بتلك الحشرات، أو الأضواء الغامضة يدفعنا للمسير لياليٍ بطولها، وذلك من أجل الوصول إلى مقابر البلدان المجاورة، حيث كان بإمكاننا أن نجد أحياناً شعلات ذات ألوان جميلة وأكبر قياساً إلى مقابرنا

المهجورة. ولكن كان ثمة خشية من أن يُفتَضح أمرنا من قبل أهالي البلدات فنؤخذ على أننا لصوص ينتهكون حرمة الأماكن المقدسة. وقد هرع خلفنا في إحدى المرات فريق من الرجال المسلمين وهم يحملون المناجل والرماح ثلاثية الشعاب. كنا في إحدى الخرائب، أنا والدكتور تريلاوني، وكنا نرفع أقدامنا فوق الصخور، لكن كنا نسمع أهالي البلدة وهم يقتربون خلفنا، في ذلك المكان الذي كان يدعى «سالتو ديلاكينا» حيث كان ثمة جسر صغير من جذوع الأشجار يقطع وَهْدَةً عميقةً؛ وبدلاً من أن نقطع الجسر، اختبأنا أنا والدكتور بين الصخور بالضبط عند حافة الوهدة، وبالكاد استطعنا أن نختبئ في الوقت المناسب، ذلك أن أهل البلدة ظهروا فجأة، لكنهم لم يرونا، وكانوا يصرخون ـ أين اختبأ أولاد الحرام؟ ـ لقد اجتازوا الجسر. هكذا كانوا يصرخون، لكن أصواتهم سرعان ما يبتلعها تيار الأعماق الهادر.

كان خوفنا من الظهور، أنا والدكتور تريلاوني قد تحول إلى انتعاش بعد زوال الخطر عنا، ثم مالبث الخوف أن عاودنا بسبب فظاعة ما كان من الممكن أن يحدث لنا لو اكتشفوا وجودنا.

بالكاد تجرأنا على الإطلالة برأسينا، والتحديق في الظلام هناك حيث اختفى القرويون، وعندما رفعنا أعيننا رأينا بقايا الجسر، كانت الجذوع ماتزال صلدة، لكنها كانت قد قُسمت إلى جزأين، وكأنهم نشروها بمنشار، ولم يكن بمقدورنا أن ندرك بأي حال من الأحوال كيف أمكن قص هذه الأخشاب الضخمة.

قال الدكتور تريلاوني: إن الأمر لا يخلو من تدخل شخص أعرفه جيداً.

وقد فهمت مايرمي إليه.

وبالفعل كان يمكن سماع فرقعة، وعند حافته الهاوية ظهر جواد فارس يلتف نصفه برداء أسود. كان هذا هو الڤيسكونت ميداردو، بابتسامته المتجمدة، وهو يتأمل الفخ الذي نصبه لنا. ويبدو أنه قد فوجئ حتى هو بذلك؛ بالتأكيد، كان يرغب في قتلنا نحن الإثنين بدلاً من أن يهرع لنجدتنا، وكنا نحدق فيه ونحن نرتجف بينما يبتعد ممتطياً صهوة جواده الناحل الذي راح يتقافز فوق الصخور كأنه جِدْيٌ من الماعز.

في ذلك الوقت، كان خالي دائم التجول فوق جواده، كان قد صنع له النجار بيتروكيودو سرجاً خاصاً، في أحد أطرافه ثمة ركاب يضمن له المحافظة على توازنه بوساطة حزام، ومن الجهة الأخرى تمَّ تثبيته عبر وضع وزنٍ معادلٍ، وعند طرف السرج كان ثمة سيف وعكاز. وهكذا راح الڤيسكونت يتجول ممتطياً صهوة جواده، وقد اعتمر قبعة ذات حوافٍ عريضة متدلّية من أحد طرفيها. وكان الجميع يفرّون هاربين في أي مكانٍ يُسمع فيه خبب جواده، وكأن مروره أكثر رعباً من مرور غالاتيو المصاب بمرض الجذام، ومن ثم يحملون معهم أطفالهم وحيواناتهم وهم يختفون خلف الأشجار والنباتات، لأن عدوانية الڤيسكونت لم تكن توفر أحداً. كان يمكن أن يظهر في أي وقت وهو مُعبّأ بأفعال مفاجئة وغير مفهومة.

لم يسبق له أن مرضَ، لذا لم يكن بحاجة إلى الدكتور تريلاوني، ولكن في حالة مشابهة كتلك لم أكن أدرك كيف أمكن للدكتور أن يتملص من لقائه. كان يبذل قصارى جهده في سبيل تجنب اللقاء مع خالي، وتجنب سماعه وهو يتحدث. وعندما يجري الحديث أمامه عن الڤيسكونت وعن وحشيته كان يخفض رأسه، ويبدأ بقضم شفتيه وهو يتمتم ـ أوه، أوه، أوه، تزت، تزت، تزت، كما لو أنه يقول شيئاً غير لائق. ولكي يغير من سياق الحديث، كان يسارع إلى التحدث عن أسفاره برفقة القبطان كوك. وقد حاولت في إحدى المرات أن أسأله كيف يمكن ـ

حسب رأيه ـ للڤيسكونت أن يعيش وهو مُشوَّه هكذا؛ لكن الإنكليزي حار جواباً ولم يقل سوى أوه، أوه، أوه، تزت، تزت، تزت. وبدا أن حالة خالي لم تكن تثير اهتمامه من وجهة نظر طبية، لكني بدأت أميل إلى الاعتقاد بأنه أصبح طبيباً فقط ليحقق رغبات عائلية أو ماشابه ذلك، وأنه لم يكن يأبه أبداً بهذا العلم، ولعلّ وظيفته كطبيب على متن سفينة، كانت تتأتى من مهارته في لعب الورق، لذا فإن كبار البحارة، وعلى رأسهم القبطان كوك، كانوا يعتبرونه زميلاً في لعب الورق وحسب.

في إحدى الليالي، وبينما كان الدكتور تريلاوني يتصيد الحشرات المُضيئة في مقبرتنا القديمة، لقي فجأة أمامه ميداردو دي ترّالبا الذي كان يطعم جواده من الأعشاب المنتشرة فوق القبور. كان الدكتور مرتبكاً جداً وقد تملكه الفزع، لكن الڤيسكونت اقترب منه، وسأله بنبرة مضطربة من فمه المشطور: هل تبحث عن فراشات ليلية أيها الدكتور؟

ردّ الدكتور بطرف صوته: أوه. ياسيدي. أوه، أوه، ليست بالضبط فراشات، وإنما حشرات مُضيئة، هل تدري؟ حشرات مُضيئة.

ـ هذا حق، حتى أنا تساءلت مراراً عن مصدر هذه الأضواء المشعة.

ـ منذ زمن، وبكل تواضع، كانت هي موضوع دراستي، يا سيدي.

ردّ تريلاوني وقد تشجع بسبب تلك النبرة الطيبة التي كان ينطوي عليها حديث الڤيسكونت.

ندّت عن وجه ميداردو المجعد، وذي الجلد الممطوط كأنه قحف ابتسامة غامضة، ثم قال: إنك، كأي دارس، تحتاج إلى المعونة، ومن المؤسف أن هذه المقبرة المهجورة لا تبدو على أنها حقل تجارب مناسب للحشرات المُضيئة، لكني أعدك أني في الغد سوف أقدم لك المعونة الممكنة التي قد تحتاج إليها.

وقد صادف أن عقدت المحكمة في اليوم التالي، وحكم الڤيسكونت بالموت على عشرة فلاحين، لأنهم حسب تقديره لم يقوموا على خدمة المناطق التابعة للقصر كما يجب، وقد دفن كلّ الموتى في الحفرة نفسها، وهكذا راحت تشع كل ليلة كمية هائلة من الأضواء المشعة. وقد ذهل الدكتور تريلاوني من طريقة الڤيسكونت في مساعدته بهذا الشكل، إلا أنه وجد هذا مناسب جداً لدراساته.

وعبرَ هذه المقارنات المأسوية، وجد المعلم بييترو كيودو أن عمله في بناء المشانق متقن للغاية. لقد كان عمله هذا يشكل قمة من قمم النجارة والميكانيك، ولم يكن الأمر مقتصراً على المشانق، بل حتى على الآلات الرافعة، وباقي أدوات التعذيب التي كان الڤيسكونت ميداردو يستخدمها لانتزاع الاعترافات من المتهمين. أما أنا فقد كنت أقضي معظم وقتي في محل بيترو كيودو، فقد كان منظره ممتعاً وهو يدأب على العمل بمهارة وشغف، لكن ضِيقاً ما كان يثير على الدوام وخزاً في قلب النجار، ذلك أن ما كان يصنعه لم يكن أكثر من إثارة آلام الأبرياء. كان يقول في سره: ماذا سأفعل؟ لِمَ لا تتاح لي الفرصة كي أصنع أشياء مختلفة الأهداف؟ ما هي الآلات الجديدة التي تتيح لي أن أصنع أشياء أرغب بحقٍّ في صناعتها؟ لكنه لم يكن يحصل على إجابات شافية لهذه التساؤلات، لذا تراه يحاول أن يبعدها عن ذهنه، وهو يجاهد في صناعة الأجهزة محاولاً جعلها أكثر جمالاً قدر ما يستطيع.

كان غالباً ما يقول لي: يجب عليك أن تتناسى الأهداف التي أُعِدَّت من أجلها هذه الأجهزة، انظر إليها كآلات وحسب، انظر كم هي جميلة.

وكنت غالباً ما أحدق في الهندسة المعمارية لهذه الدعامات، هذا الصعود والهبوط للذيول، الترابط الوثيق بين الآلات الرافعة وبين البكرات،

وكنت كلما أوغلت في بذل الجهد أجد نفسي مضطراً للتفكير، وكنت أدأب على سؤال بيترو كيودو: ماذا سأفعل؟

يرد: كما أفعل أنا بالضبط أيها الصغير، كما أفعل أنا بالضبط.

ولكن رغم الآلام والمخاوف، كان لتلك الأيام نكهة خاصة من فرح وبهجة. كانت الساعة الأكثر جمالاً تجيء عندما تتوسط الشمس كبد السماء، وعندما يغدو البحر ذهبياً، وعندما تغني الدجاجات وهي تبيض، وعلى الدروب يُسمع نغم النفخ في أبواق مصابي الجذام. كان المصاب بالجذام يمرّ كل صباح محاولاً استعطاف الناس لكي يرأفوا بزملائه المُبتَلين بيلواه نفسها.

كان يدعى غالاتيو، وكان يحمل على كتفه، أغلب الأحيان، بوق صيد، حيث كان نَغَمُهُ يثير الانتباه عن بعد ويشير إلى قدومه، وكانت النساء تسمع صوت بوقه، لذا تهرع لتضع له فوق الجدران البيض والكوسا والبندورة وأحياناً أرنباً صغيراً مسلوخاً، ثم ما يلبثن أن يهربن ويختبئن وهن يعدن أطفالهن، ذلك أنه يجب ألّا يبقى في الشارع أحد عندما يمر المجذوم، فالجذام يبث عدواه عن بعد، وعلى كل فإن رؤية المجذوم كانت شيئاً خطيراً. وشيئاً فشيئاً، بينما تسبقه أنغام البوق، كان غالاتيو ينحدر في الدروب الخاوية وهو يحمل عصاه بيده، على حين يجر أذيال ثوبه التي تمس الأرض. كان شعره طويلاً وأصفر، ووجهه مدوراً وأبيض وقد أفسده الجذام. يلتقط العطايا، يضعها في خرجه وهو يلقي بتحياته المملوءة بالشكر نحو بيوت الفلاحين المختبئين، بصوته الحلو وهو يتلفظ بإشارات ضمنية مثيرة للضحك، أو لعلها مملوءة بالخبث.

في أيامنا تلك، وبالقرب من البحر، كان الجذام مرضاً منتشراً. كان ثمة بلدة قريبة منا تدعى براتوفونغو وجميع قاطنيها مجذومون، وكنا غالباً ما نرسل لهم العطايا، تلك التي يلتقطها غالاتيو، وعندما كان الجذام

يصيب أحد الريفيين، فإنه يترك الأهل والأقارب والأصدقاء ويذهب إلى قرية براتوفونغو، ويقضي كل حياته هناك منتظراً أن يبتلعه المرض. كان ثمة حديث عن حفلات تقام عندما يصل زائر جديد، ومن بعيد كان يمكن سماع الأنغام والغناء المتصاعد من بيوت المجذومين حتى المساء.

كان يقال الكثير عن براتوفونغو، ولكن لم يصادف أن وُجِد فيها أحد من الأصحاء، لكن الآراء كانت تجمع على أن الحياة هناك صخب أبدي. أما البلدة فكانت، قبل أن تغدو منفى للمجذومين، وكراً للعاهرات، حيث كان يحط الرّحال فيها بحّارة من كل عرق ودين. وكان يبدو أن النساء مازلن محتفظات بثياب أيام زمان الفاخرة. ولم يكن المجذومون يعملون في زراعة الأرض، باستثناء حقل كرمة حيث كان النبيذ الذي يستخرجونه يجعلهم طوال العام في حالة نشوةٍ وسكر.

كان شغل المجذومين الشاغل هو العزف على آلات موسيقية غريبة من اختراعهم، وهي قيثارات علقت في أذيالها مجموعة من الأجراس، ومن ثم ينخرطون في الغناء. ثم إنهم كانوا يدهنون البيض بمختلف الألوان كما لو أنهم يعيشون في عيد دائم، وهكذا كانوا يتيهون في عزف موسيقى عذبة وقد عقدوا أكاليلَ من الياسمين حول هذه الوجوه المشوهة، ولم يعودوا يذكرون المجتمع البشري الذي انتزعهم منه المرض.

لم يصادف أن رغب أي من الأطباء المحليين بمداواة المجذومين، ولكن ما أن حلّ تريلاوني بيننا حتى أمل البعض في أن يستخدم الطبيب علمه في معالجة هذا الوباء الذي أبتليت به منطقتنا. حتى أنا - رغم صغر عالمي - شاركت الجميع في أملهم هذا، ذلك أني رغبت ومنذ أمد في أن أتجه صوب براتوفونغو وأن أشارك المجذومين احتفالاتهم تلك. ولو أن الدكتور رغب في تجريب أدويته على هؤلاء المبتلين، فلربما سمح لي عندئذ بمرافقته

إلى داخل البلدة. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل، ذلك أنه ما يكاد يُسمع غالاتيو وهو ينفخ في بوقه حتى يهرع الطبيب ترلاوني هارباً، مطلقاً ساقيه للريح، وقد بدا أنه أكثر الجميع خوفاً من أن يحتك به. وقد حاولت بضع مرات أن أستعلم منه عن طبيعة هذا المرض، لكنه كان يجيبني دوماً بشكل مراوغ، كما لو أن كلمة جذام تقضُّ مضجعه.

في الحقيقة، لست أدري لِمَ كنا نجرؤ على اعتباره طبيباً، ذلك أنه كان يبدي مزيداً من الاهتمام والانشغال فيما يخص البهائم، خاصة الصغيرة منها، والصخور والظواهر الطبيعية المختلفة، أما فيما يتعلق بالكائنات البشرية وبالآفات التي يمكن لها أن تصيبهم فقد كان يبدو أنها تثير فيه نوعاً من الاشمئزاز والذعر. يثير منظر الجروح رعبه، يكاد بأطراف أنامله يمس المرضى. وعندما كان الأمر يتعلق بمرضٍ خطيرٍ فإنه كان يغطي أنفه بمنديل مبلل بالحموض المُعقِّمَة. يكاد يخجل من رؤية جسم عارٍ، تماماً كما تفعل الصبايا. وإذا كان الأمر متعلقاً بامرأة فإنه يخفض عينيه اللتين ما تنفكان ترمشان. كان يبدو وكأنه خلال تطوافه الطويل عبر المحيطات لم يصادف أن تعرف على نساء، ولحسن الحظ أنه في أيامنا تلك كانت مسألة الولادات من اختصاص قابلات وليس من اهتمام الأطباء، ولو لم يكن الأمر كذلك، من يدري كيف كان يمكن لهذا الرجل أن يواجه حالات من هذا النوع.

وفي غمرة الليل البهيم، داهمت خالي فكرة إشعال الحرائق، هكذا ولبرهة قصيرة شبت النار، ربما أصابت مستودعاً للتين تابعاً لبعض الفلاحين، أو ربما أصاب الحريق شجرة، أو لعله مسّ غابة بأكملها، وهكذا حتى الصباح انخرط الجميع في إيصال الماء بأيديهم الجافة بغية إطفاء الحريق. الضحايا هم كالعادة بعض الفلاحين البؤساء الذين ربما اختلفوا يوماً ما مع الفيسكونت، إما بسبب أوامره الجائرة وغير الصائبة، أو ربما

بسبب مضاعفة الضرائب. ولما لم يكن قد شفى غليله من جراء حرق المتاع، فإنه جعل النار تمتد كيما تصيب السكان أنفسهم. وهكذا فما أن اقترب الليل حتى أضرم النار في أسطحة المنازل ثم فرّ على ظهر جواده، ومن ثم علق رأس صبي وهو مسلوخ. لذا فإن الحقد بدأ يتنامى بين ظهراني الفلاحين تجاه الفيسكونت، وكان أكثر أعدائه ينتمون إلى طائفة الأوغونوتي(*) الذين كانوا يقطنون البيوت الريفية المنعزلة، والذين أخذ رجالهم على عاتقهم مهمة القيام بالحراسة المتناوبة أثناء الليل بغية تجنب حدوث أي حريق.

ودونما أي سبب مبرر، غدا في إحدى الليالي متجهاً صوب براتوفونغو، وهناك أضرم النار في الأسطح المصنوعة من القش. كان المجذومون يتمتعون بخاصية عدم الإحساس إذا ما مستهم النار، لذا لم يكابدوا الشعور بالألم. وإذا ما صادف ومستِ النار أحدهم بينما هو نائم فإنه لم يكن ليستيقظ أبداً. وهكذا، بينما كان يفرّ هارباً، شعر الفيسكونت بأنه ينصت إلى لحن كمان يصّاعد من البلدة، لقد استيقظ قاطنو براتوفونغو، وانخرطوا يمارسون ألعابهم، ولم يكن مدعاة ذلك شعورهم بألم ما، وإنما كان هذا نوعاً من الاحتفال والتسلية التي تغذي أرواحهم. أطفؤوا الحريق بسرعة، وحتى منازلهم التي ربما كانت قد حُقِنت بالجذام لم تكن قد تأذت من الحريق كثيراً.

وقد مسّ شرُّ ميداردو أملاكه الخاصة أيضاً، القصر، فقد تصاعدت النيران من الأجنحة التي كان يقطنها الخدم، وتعالى صراخ المُحَاصَرين بالنار، أما الفيسكونت فقد شوهد وهو يمتطي صهوة جواده ويمضي عبر القرية. كان هذا اعتداءً على حياة المربية سيباستيانا، وقد صاحبه شعورٌ

(*) الأوغونوتي: اسم كان يطلق على بعض المجموعات البروتستانتية في القرنين السادس والسابع عشر.

بالعناد والتسلط من قبل المربية، وهو ما تبديه في العادة النساء تجاه من رافقتهم وهم صغار، ذلك أن سيباستيانا لم تدخر وسعاً في تأنيب الڤيسكونت في كل فظاظة لا يمكن إصلاحها أبداً، وقد ترتب على ما حدث أن أمضت سيباستيانا العديد من الأيام وهي أسيرة الرقاد في الفراش، داخل الجدران المتفحمة، وذلك كي تشفى من آثار الحرق.

وفي إحدى الأمسيات، فُتِح باب الحجرة التي كانت تضم سيباستيانا، وظهر الڤيسكونت وهو يقترب من فراشها. قال ميداردو وهو يشير إلى آثار الحرق: ما هذه البقع التي تملأ وجهك أيتها المربية؟

ردت العجوز بهدوء: إنما هي علائم الذنوب التي تقترفها يا ولدي.

ـ ولكن جلدك تشوه وانقلب لونه، أي مكروه عساه أصابك؟

ـ إن هذا الألم لا يمكن له أن يقاس بما ينتظرك في الجحيم ما لم ترعوِ يا بني.

ـ أريدكِ أن تشفي في أقرب وقت، لا أريد لأحد أن يعلم بما حدث.

ـ لا أملك أي زوج يمكنه أن يهتم بما أصاب جسدي، إن بعض التعزية يبدو كافياً، ويمكنك بالأحرى أن تفعل ذلك أنت.

ـ ومع ذلك فإن زوجك بانتظارك لكي يأخذك ويمضي، ألا تعرفين ذلك؟

ـ لاتسخر من الشيخوخة أبداً يا بني، وأنت الذي أمضيت شباباً مشوهاً.

ـ إني لا أمزح أبداً أيتها المربية، إن خطيبك ثاوٍ بالقرب من نافذتك وهو يغني لكِ.

أرهفت سيباستيانا السمع، فتناهى إليها لحن غناء المجذومين.

وفي صباح اليوم التالي أرسل ميداردو من يحضر الدكتور ترلاوني. قال مخاطباً الدكتور: ثمة ندب غريبة على وجه خادمتنا العجوز، الكل يخشى من الجذام، إننا نثق بعلمك، أيها الدكتور.

انحنى ترلاوني وهو يتمتم: إنه واجبي يا سيدي، إنني في خدمتك دوماً يا سيدي.

ثم استدار وخرج وهو يكاد ينسلّ بعيداً عن القصر، مصطحباً معه مطرة النبيذ كانكارونه، ثم اختفى بين طيات الغابة، وقد أمضى أسبوعاً كاملاً دون أن يراه أحد، ولما عاد، كانت المربية سيباستيانا قد أُرسلت إلى بلدة المجذومين.

في إحدى الأمسيات آن الغروب غادرت القصر وهي متشحة بالسواد ومتخفية، وقد علقت على ساعدها صرّة أمتعتها، لقد أدركتْ أن قدرها غدا حتمياً، يجب عليها سلوك الطريق المؤدي إلى براتوفونغو، وهاهي ذي الآن تغادر الغرفة التي احتفظت بها حتى الآن. كان الممر خالياً، وكذلك السلالم التي هبطت متجهة صوب بهو القصر، ثم عبرت القرية التي كانت خاوية. كان الجميع مختبئين في أماكنهم، وقد تناهى إلى سمعها صوت بوق صيد وهو يتناغم، كان هذا هو النداء، وأمام الدرب ظهر غالاتيو وهو يرفع عالياً فم آلته. كانت المربية تسير بتؤدة، وكان الدرب يتجه صوب الشمس الغاربة، وكان غالاتيو يتقدمها بمسافة بعيدة، وبين الفينة والأخرى يتوقف قليلاً كأنه يتأمل الأفاعي المندسة بين أوراق الشجر، يرفع بوقه وينفخ فيه مصدراً لحناً حزيناً. كانت المربية ما تنفك تحدق في الحقول المترامية والضفاف التي شرعت تنأى، كانت تشعر خلفها بالناس يبتعدون عنها، ومن ثم تُعاود سيرها، وحيدة، مقتفية أثر غالاتيو الذي يسبقها. وهكذا حتى وصلت إلى براتوفونغو، ومن ثم تُغلَق خلفها أسيجة البلدة بينما تصّاعد أنغام الكمان والقيثارات.

لقد خدعني الدكتور تريلاوني، ذلك أنه لم يحرك ساكناً في محاولة لمنع إدانة العجوز سيباستيانا والحكم عليها بأنها مصابة بالجذام، وذلك رغم معرفته بأن هذه الآثار والندب لم تكن بسبب الجذام. كان هذا يدل على خِسّة، وقد خالجتني للمرة الأولى مشاعر عدائية تجاه الدكتور، أضف إلى أنه لم يأخذني معه عندما اختفى في الغابات، وذلك رغم إدراكه بأني قد أكون مفيداً له، كصياد سناجب، وباحث عن توت بري. الآن، لم يعد يروق لي أن أصحبه في البحث عن حشرات مُضيئة كما كان يحدث في السابق، لذا فقد دأب على التجول هنا وهناك باحثاً عمّن يصاحبه.

الآن أجد نفسي منجذباً إلى الأشخاص الذين كانوا يدعون بـ«الأوغونوتي»، أولئك القاطنون في غول جيربيدو، وكانوا قد فرّوا من فرنسا بعد أن أمر الملك بتقطيع أوصال كل من يتبع ديانتهم. وعند عبورهم الجبال كانوا يصدرون كتبهم ويصنعون أدواتهم المقدسة. الآن، لم يعد لديهم إنجيل يقرؤونه أو قداس يقيمونه، لا ترانيم يرتلونها ولا صلوات يقيمونها. لم تعد لديهم الثقة والطمأنينة شأنهم في ذلك شأن من يعيش حالة اضطهاد أو من تضطره الحياة إلى العيش بجوار أناس من ذوي إيمان مختلف. لم تعد لديهم أبداً الحاجة إلى تقبل أي كتاب مقدس ولا إلى الاستماع إلى نصائح تتعلق بالطريقة التي يجب أن يحتفلوا فيها بمعتقداتهم. وإذا ما صادف وقدّم أحد ما إليهم نفسه كأخ في الدين، فإنهم سرعان ما ينتابهم شعور بالخوف من أن يكون تابعاً للبابا. لذا فإنهم عندئذٍ يلتزمون الصمت. وهكذا فقد وجدوا أنفسهم مضطرين لفلاحة أرض غول جيربيدو القاسية، مكرسين أنفسهم للعمل إناثاً وذكوراً منذ الشفق وحتى غروب الشمس، وهم يعيشون على أمل أن يُوهبوا النعيم. كانت خبرتهم ضعيفة جداً بما عساها تكون الذنوب، ولكي يتجنبوا ارتكاب أي خطيئة كانوا يضاعفون من إحجامهم عن فعل أي شيء، وقد

حصروا جل اهتمامهم في التحديق الواحد في وجه الآخر وهم يرقبون أي فعل ما قد يقودهم إلى الخطيئة. وقد ظلت ذكرى الخلاف الكنسي ماثلة أمام أعينهم لدرجة أنهم بدؤوا يمتنعون عن لفظ كلمة الله أو أي تعبير ديني آخر، خوفاً من التحدث بطريقة تمس قدسية هذه الأشياء. وهكذا فإنهم ظلوا دون أتباع ودون أي قاعدة أو مبدأ، بل ربما لم يكونوا ليتجرؤوا على تكوين أية أفكار ذات طبيعة عقائدية، هذا رغم احتفاظهم برصانة عميقة كما لو أن هذا كان طبعهم منذ البدء. وعلى العكس من ذلك فإن قواعد زراعتهم المرهقة قد حملت في طياتها قيماً متساوية وكأنها وصايا، ومن هنا نشأت لديهم عادة التقتير هذه التي غدوا مجبرين عليها، كما نشأت لديهم فضائل ربات البيوت من النساء.

لقد كانوا أشبه بعائلة كبيرة، مملوءة بالأسباط والكنّات. كانوا طوال القامة، شُقر الشعر، وكانوا ينهمكون في العمل في الأرض وهم يرتدون أزياء الاحتفالات، أزياء سوداء وذات أزرار، وقد اعتمر الرجال قبعات عريضة، وتلفّحت النساء بوشاح أبيض. كان الرجال ذوي لحى طويلة وهم ما ينفكون يحملون بنادق عتيقة محمولة على نجاد، ولكن يقال إنه لم يصادف أن أطلق أحد منهم طلقة واحدة، عدا رمي عصافير الدوري. وذلك لأن الوصايا تمنع فعل ذلك.

ومن على بساط السلالم حيث نمت بصعوبة ومشقة بعض داليات العنب وسنابل القمح، كان يمكن سماع صوت العجوز إيزيكيله الذي كان يصرخ دوماً دون توقف وهو يلوح بقبضته باتجاه السماء وقد أخذت ترتعش لحيته الطويلة الشبيهة بلحية الماعز، مجيلاً الطرف بعينيه اللتين تلمعان تحت القبعة وهو يصرخ بأقربائه المنهمكين في العمل:

ـ وباء وجدب، وباء وجدب، هيا يا جونا إليك بتلك الفأس، اقطعي العشب يا سوزانا، انثر السماد يا توبيا.

ثم ما ينفك يلقي بآلاف الأوامر، ما ينفك ينحني باللائمة، وقد
الغضب والبغض تجاه كل من يقصر في عمله، ثم إنه، وفي كل
يصرخ بآلاف الأوامر مشيراً إلى الأعمال التي يجب أن يقوموا بها لـ
تصاب الأرض بالبوار، بل إنه ينخرط شخصياً في إنجاز مايراه ضرور
يقصي الآخرين وما ينفك يصرخ:

ـ وباء وجدب.

زوجته لم تكن تصرخ أبداً، بل على العكس، كانت تبدو و
مختلفة عن الجميع، مملوءة بثقة ديانتها السرية وقد شغلتها أشياء ص
لكنها لم تكن لتصرّح بذلك إلى أحد. كانت مكتفية بالتحديق
اللتين تملؤهما الحدقتان، ثم ما تلبث تردد وقد مطّت شفتها:

ـ هل يبدو لكِ ذلك مناسباً أيتها الأخت راشيله؟ هل يبدو لكَ
مناسباً أيها الأخ أرونه؟ لماذا تختفي الابتسامات من على شفاه ا
وتغدو ملامحهم وكأنها قد تحجرت.

في إحدى الأمسيات وصلت إلى غول جيربيدو، بينما
الأوغونوتي يقيمون صلاتهم، لم يكونوا ينبسون ببنت شفة، بل
يتركون أيديهم ممدودة وكانوا يركعون، منتظمين في صف واحد
الكروم، الرجال في أحد الأطراف، والنساء في الطرف الآخر، وفي
ثوى العجوز إيزيكيله وقد تهدلت لحيته، كان يحدق أمامه وقد
قبضتي يديه المتدليتين من ساعديه الطويلين والعاريين. كانوا مستغرقة
صلاتهم هذه لدرجة أنهم لم يكونوا لينتبهوا إلى ما يحيط بهم. أم
فإنه قد مدّ يده وانتزع شرنقة من إحدى داليات العنب، وسحقت
بكعب حذائها حلزوناً، وحتى إيزيكيله فإنه ما انفك يرفع قبعته
سريعة كيما يُبعد طائر الدوري الذي راح يحط في حقل القمح.

ثم ما يلبثون أن يترنموا بترتيلة، لم يكونوا يذكرون كلمات، وإنما اللحن وحسب، وفي أحيان كثيرة كان أحدهم يشذّ عن اللحن، بل ربما شذّ الجميع عنه، لكنهم لم يتوقفوا أبداً. فما أن تنتهي مقطوعة حتى يباشروا بالأخرى لكنهم دأبوا على عدم التلفظ بكلمات.

شعرتُ بغتة أن أحدهم يشد ساعدي، كان إزاو الصغير، وهو في مثل سني تقريباً، يشير إليّ أن التزم الصمت وأن أتبعه. إنه الابن الأصغر للعجوز إيزيكيله، وقد شابهه بتعابير وجهه القاسية والمشدودة، لكنه في الحقيقة كان أكثر حيطة وحنكة. ثم ابتعدنا وكأننا من زواحف الكروم بينما كان يقول لي:

ـ سيمكثون كذلك نصف ساعة أخرى، يالهذه اللحية، تعال معي سأريك جحري.

كان جحر إزاو سرياً، وكان يختبئ فيه لكي لا يعثر عليه أحد فيكلفه برعي الماعز، أو بالتقاط الحلزون من الحقل. كان يمضي نهاراً كاملاً في عطالة، بينما دأب والده على الصراخ منادياً إياه عبر أرجاء القرية.

كان إزاو يحتفظ في جحره بالتبغ، وقد علّق على أحد الجدران غليونين من الخزف. ملأ أحدهما ثم بدا كأنه يشرع في التدخين، علمني كيف أشعله له، ثم شرع ينفث الدخان بشراهة لم تكن معتادة بالنسبة لصبي في مثل سنه. بالنسبة لي كانت هذه هي المرة الأولى التي أشرع فيها بالتدخين. لذا فقد توقفت عن التدخين بعد شعوري بوعكة مفاجئة، وكيما يبث الشجاعة في داخلي، تناول زجاجة من الكراپّا ثم ملأ لي كأساً جعلني أنخرط في السعال، ثم شعرت بمغص في أمعائي، أما هو فقد كان يحتسيه كما لو كان ماءاً. قال: إني بحاجة إليه كي أثمل.

سألته: من أين جئت بكل هذه الأشياء التي تحتفظ بها في جحرك هذا؟

رد إزاو وهو يحرك أصابعه بطريقة غريبة: لقد سرقتها.

كان قد غدا زعيماً لعصابة من الفتيان الكاثوليك الذين كانوا يجوبون الأرياف المحيطة وهم ينهبون ويسلبون، ولم يكونوا يسرقون الفاكهة من أشجارها وحسب، وإنما كانوا يدخلون إلى حظائر الدجاج وإلى البيوت، وقد دأبوا على لعن المعلم بيترو كيودو. كانوا يعرفون كل الشتائم الكاثوليكية والأوغونوتية، وكانوا يتبادلون هذه الشتائم فيما بينهم.

قال لي موضحاً: لقد اقترفت المزيد من الآثام. أمارس شهادة الزور، وغالباً ما أنسى سقاية الفاصولياء، لا أكن احتراماً لأبي وأمي، وأعود إلى منزلي في ساعة متأخرة من الليل. الآن لدي الرغبة في ارتكاب المزيد من الآثام، حتى تلك التي يقولون إنها فاحشة.

قلت له: آثام! حتى القتل؟

هزّ كتفيه وهو يقول: القتل لم يعد مقنعاً بالنسبة لي، إنه لا يخدمني أبداً.

قلت وأنا أكاد أُلمّح إلى شيء خاص بي، يمكنه أن يجد صدى لدى إزاو: خالي يقتل، وهو يقتل فقط لمجرد الشعور باللذة.

قال إزاو وهو يبصق: لذة الحمقى.

ثم بعد ذلك تصاعد دوي الرعد، وخارج الجحر كان المطر يهطل. قلت له: سوف يفتقدونك في المنزل.

بالنسبة لي لم يكن هناك من يبحث عني، ولكنني كنت ألحظ أن الناس غالباً ما يبحثون عن صبيانهم، وخاصة عندما يكون الطقس رديئاً، وكنت أعتقد أن هذا شيء مهم.

ردّ إزاو: لننتظر حتى يتوقف هطول المطر، وفي هذه الأثناء يمكننا اللعب بالنرد.

ثم أخرج زهر النرد، كان اللعب يفترض وجود النقود، ولمّا لم أكن أملك النقود، فقد راهنت على صفارتي، سكاكيني، ومقلاعي، وقد خسرتها كلها.

أخيراً قال لي إزاو: هيا لا تفقد شجاعتك، أتدري، إني أحتال عليك؟

في الخارج كان الرعد والبرق والمطر الغزير، وقد أخذ الماء يتسرب إلى جحر إزاو. أما هو فقد أعاد تبغه إلى مكانه كما رتب بقية أغراضه وهو يقول: سوف يستمر هطل المطر طوال الليل، من الأفضل أن نأوي إلى بيوتنا.

وعندما وصلنا إلى منزل العجوز إيزيكيله كنا مبللين وقد غطانا الوحل، كان الأوغونوتي جالسين إلى الطاولة، وتحت ضوء مصباح كان يجهدون في تذكر بعض أحاديث وحوادث الإنجيل، وهم يتمعنون فيها كأنها أشياء قد قُرِئت من قِبَلِهم في إحدى المرات، لكنها كانت ـ بالنسبة لهم ـ تحمل معانٍ وحقائق غير ثابتة ولا مطمئنة.

ـ وباء وجدب.

صرخ إيزيكيله وهو يخبط بقبضته الطاولة مما جعل الضوء ينطفئ. كنت أنا وإزاو واقفين بالباب.

كانت أسناني تصطك بعضها ببعض، وقد انهمك إزاو يروي الأكاذيب، أما في الخارج فقد بدا أن الرعد والبرق قد أطبقا على غول جربيد بينما كانوا يعيدون إضاءة النور. أما العجوز فقد راح يلوّح بقبضته

وهو يحصي آثام ولده وكأنها أشياء شنيعة لم يسبق أن اقترفها إنسان من قَبْلُ، رغم أنه لم يكن يعرف منها إلا الشيء البسيط، وقد أقرّت الأم بذلك وهي صامتة، وكان كل الأولاد الآخرين والأحفاد والكنات يصغون وقد تدلت رؤوسهم على صدورهم، ومن ثم غطوا وجوههم بأكفهم، في حين انهمك إزاو بقضم تفاحة وكأن كل ما يجري لا يعنيه أبداً، أمّا أنا فقد كنت ما بين الرعد القاصف وصوت إيزيكيله أرتجف كسفينة تتقاذفها الأمواج.

قطعت عودة رجال الحراسة حبل الصراخ القائم، وهم يحملون أسلحتهم وقد بللهم المطر. كان الأوغونوتّي يقومون بأعمال الحراسة الدورية طوال الليل وهم مسلحون بالبنادق العتيقة وبالمناجل والمذاري، وذلك للتصدي لأعمال الفيسكونت الغادرة. الآن غدا هذا عدواً صريحاً لهم.

قال الأوغونوتّي: إنها ليلة ليلاء أيها الأب، ولانعتقد بأن الأعرج سوف يأتي، هل نستطيع الدخول إلى منازلنا أيها الأب؟

تساءل إيزيكيله: ألا يوجد أي أثر للبتّار هناك فيما حولنا؟

ـ لا أيها الأب، فلو استثنينا الأنوار التي تبثها الصواعق، فإن هذه الليلة ليست مناسبة حتّى للعميان.

ـ حسناً ابقوا في منازلكم، وبدّلوا ثيابكم، نأمل أن تحمل العاصفة الراحة والسلام إلى الشقي وإلينا.

الأعرج، البتار، الأعمى، الشقي؛ كانت هذه هي مجموعة النعوت التي يطلقها الأوغونوتّي بحق خالي، ولم يسبق لي أن سمعتهم يشيرون إليه باسمه. بل كانوا يجرئون في أحاديثهم الخاصة على نعته بهذه الصفات. الآن غدا بالنسبة لهم عدواً قديماً، كانوا يطلقون فيما بينهم

جُملاً تحمل الكثير من الغمز واللمز، «إيه، إيه، البتار، بالضبط هكذا، نصف الأطرش»، وكأن كل جنون ميداردو الغامض غدا واضحاً لهم ومتوقعاً.

كان هذا ما يتحدثون به عندما دوى وسط العاصفة صوت طرق على الباب. تساءل إيزيكيله: من الطارق في هذه الساعة؟ هيا افتحوا بسرعة.

فُتح الباب، فظهر الڤيسكونت مستقيماً على قدم واحدة. وهو مختبئ بمعطفه المبلل وقبعته التي غطاها المطر.

قال: لقد ربطت جوادي في إسطبلكم، أرجو أن تستضيفوني أنا أيضاً؛ هذه الليلة سيئة جداً بالنسبة لعابر سبيل.

قال إيزيكيله: اجلس إلى النار، لا يلقى الضيف في هذا المنزل سوى الترحاب.

وبالقرب من العتبة، كانت قد كُدِّست بعض الأغطية والشراشف كتلك التي توضع تحت أشجار الزيتون عند قطافه.

اضطجع ميداردو وغط في النوم.

وفي عمق العتمة، تجمهر الأوغونوتّي متحلقين حول إيزيكيله، ومن ثم همسوا:

ـ أيها الأب، الآن، الأعرج في قبضتنا، هل سنتركه يفرّ؟ هل سنسمح له بأن يرتكب المزيد من الأذى بحق الأبرياء؟ إيزيكيله، ألم تحن ساعة القصاص؟

لوح العجوز بقبضته باتجاه السقف وهو يصرخ، هذا إذا أمكننا اعتبار أنه يصرخ دون أن يطلق أي صوت: وباء وجدب، لم يسبق في هذا المنزل

أن تعرض أي ضيف لمكروه، بل إنني سوف أقوم بحراسته فيما هو نائم.

ثم اضطجع بالقرب من الڤيسكونت وهو يحمل بندقيته داخل نجادها، فتح ميداردو عينيه وتساءل: ما الذي تفعله هنا أيها السيد إيزيكيله؟

- إني أقوم بحراستك بينما تغط في النوم أيها الضيف، هناك الكثيرون ممن يحملون الكراهية لك.

رد الڤيسكونت: أعلم ذلك، لذا فإني لا أنام في القصر خشية أن يقتلني الخدم أثناء رقادي.

- حتى في منزلنا لست محبوباً أيها السيد ميداردو، ولكن في هذه الليلة لن تلقى سوى الاحترام والترحاب.

غرق الڤيسكونت في صمته لبرهة ثم قال:

- إيزيكليه، أريد أن أنتسب إلى دينكم.

بقيَ العجوز صامتاً، فتابع ميداردو:

- إني محاط بالأعداء، أريد أن أحمي نفسي عبر دعوتي للأوغونوتّي للعيش معي في القصر، أما أنت أيها السيد إيزيكيليه فسوف تغدو وزيري. سوف أعلن ترّالبا وطناً للأوغونوتّي، وسأبدأ بشن الحرب ضد الأُمراء الكاثوليك، وأنتم مع عائلتكم سوف تكونون الزعماء، هل توافق على هذا يا إيزيكيله؟ هل تستطيع قبولي في دينكم؟

كان العجوز ثابتاً لا يريم، بصدره العريض الذي يمر بوسطه نجاد البندقية، قال: لقد نسيت الكثير من ديننا فلست مؤهّلاً لقبول أي عنصر جديد، أنا سوف أبقى في أرضي حسب معرفتي وقناعتي، وأنت سوف تظل في أرضك حسب معرفتك وقناعتك.

اتكأ الڤيسكونت على كوعه وقال: هل تعلم يا إيزيكيله بأني لم أتقصَّ بعد عن وجود ملحدين في مقاطعتي؟ وأن إرسال رؤوسهم كهدايا إلى أسقفنا سوف يجعلني أعود لأحظى بثقة هيئة الكنيسة؟

رد العجوز: ما تزال رؤوسنا فوق أكتافنا أيها السيد، وقطعها يتطلب الكثير الكثير.

نهض ميداردو واقفاً على قدمهِ، وقال وهو يختفي خارجاً:

ـ أُفضّل النومِ هناك في الأسفل، تحت شجرة البلوط، ذلك خير لي من النوم وسط أعدائي.

صرخ العجوز منادياً الآخرين: أيها الأبناء، لقد كان مقدراً أن يمرّ الأعرج بادئ ذي بدء بنا كزائر، الآن لقد رحل، ولكن درب بيتنا غدت خالية الآن، لا تفقدوا الأمل أيها الأبناء، ربما مرّ في المرة القادمة زائر أفضل منه.

انحنى رجال ونساء الأوغونوتي للزعيم، قالت زوجة إيزيكليه:

ـ حتى لو لم يأتِ أحد، نحن سنظل في أرضنا.

في تلك اللحظة لمع ضوء البرق في السماء، على حين هزّ الرعد قرميد وحجارة الجدران، صرخ توبيا: لقد سقطت الصاعقة فوق شجرة البلوط، الآن سوف تحترق.

هرع الجميع خارجاً وهم يحملون القناديل، وشاهدوا الشجرة وقد احترق نصفها، من أعلى ذروتها وحتى الجذور، أما نصفها الآخر فلم يمس، ومن بعيد، وتحت المطر، تناهى إلى مسامعهم خبب جواد، وتحت شعاع ضوء ما كان يمكن أن يلمح المرء معطف الفارس الضئيل.

قال الأوغونوتّي: لقد أنقذتنا أيها الأب؛ لك جزيل الشكر يا إيزيكيله.

ثم راح يتكشف ضوء السماء، ومن جهة الشرق شع الشفق.

نادى إزاو عليّ ثم انحنى بي جانباً وهو يقول:

ـ هيا قل فيما إذا كانوا مغفلين أم لا؟ إنظر ماذا فعلت أنا في هذ الأثناء.

ثم عرض علي كومة من الأشياء اللامعة والمضيئة وهو يقول:

ـ لقد جمعت كل أقراص السرج الذهبية بينما كان الجواد موثَقاً إلى شجرة البلوط، هيا قل فيما إذا كان الجميع مغفلين، ولم يخطر على بال أحد منهم فعل شيء من هذا القبيل.

لم تكن طريقة إزاو هذه لتروق لي، أما سلوك باقي أقربائه فقد كان يجعلني أشعر بالخضوع والعبودية، لذا كنت أفضل أن أنطوي على نفسي، وأن أيمم وجهي شطر شاطئ البحر لكي ألتقط المحار وأصطاد سرطان البحر. وبينما كنت أهم في إخراج سرطان بحر ضخمٍ من قمة إحدى الصخور الناتئة، لمعَ بغتة برقٌ على سطح الماء الرقراق. كان الضوء يأتي من خلف رأسي، ومن ثم سقطت في الماء من فرط ذعري.

قال خالي: هيا أمسك هذه.

كان هو الذي اقترب من كتفي، وسبب لي كل هذا الذعر، وكان يريدني أن أتعلق بحد سيف.

أجبت: لا، سأفعل هذا بمفردي.

ثم تعلقت بجزء الصخرة البارز.

قال ميداردو: هل تذهب في البحث عن المحار؟ أما أنا فأبحث عن أخطبوط البحر.

ثم أطلعني على غنائمه، كانت عبارة عن أخطبوطات ضخمة، بنية

اللون وبيضاء، كانت قد قُطِعت من منتصفها بضربة سيف، لكنها كانت ماتزال تخبط بما تبقى فيها من حياة.

قال خالي وهو يضطجع على بطنه فوق الصخرة، وهو يداعب أنصاف الأخطبوطات:

ـ هكذا إذا ما رغبت بشطر شيء كامل إلى نصفين، ربما استطاع أي شيء أن يخرج خارج كماله الساذج والبليد، عندما كنت كاملاً كانت تبدو لي الأشياء بأسرها طبيعية ومختلطة، بلهاء كالهواء، كنت أعتقد بأني أرى كل شيء، لكنه في الحقيقة لم يكن سوى مظهر خارجي للأشياء. هكذا، إذا ما صادف وتبقى لك نصفك، عندئذٍ سأهنئك أيها الصبي، عندها ستدرك تلك الأشياء التي تقع فيما وراء ذكاء الدماغ الكامل، ستفقد آنذاك نصفك ونصف العالم، ولكن ذلك النصف الذي سيبقى سوف يكون أكثر عمقاً وثمناً بآلاف المرات، كما أنك سترغب في أن يكون كل شيء مشطوراً وممزقاً في تصورك، ذلك أن الجمال والمعرفة والعدالة موجودة فقط في النصف المتبقي.

أجبت: أوه، أوه، كم هي وفيرة سرطانات البحر هنا.

كنت أحاول أن أبدو مهتماً بصيدي فقط، وذلك لكي أبقى بعيداً عن سيف خالي. لن أعود أبداً إلى الشاطئ ما لم يبتعد هو وأخطبوطاته، لكن صدى كلماته مازال يهزني بعنف، كما أني لم أجد مفراً ينأى بي عن فورة التشطير هذه. تريلاوني، بيتروكيودو، الأوغونوتي، المجذومون. لقد كنا جميعاً خاضعين لهذا الرجل المشطور، لقد كان هو السيد الذي نقوم على خدمته، ولم نكن أبداً قادرين على التحرر من سطوته.

6

مشدوداً إلى سرج جواده الوثاب، راح ميداردو دي ترّالبا يصعد ويهبط المنحدرات، ينتأ من الوديان، متقصياً بعين جارحة. وتشاء المصافة أن يلتقي بالراعية باميللا وسط المرج وهي ترعى معزتها. قال الڤيسكونت:

ـ هكذا أنا، بين جميع أحاسيسي الثاقبة، لا أجد في داخلي أي شيء شبيه بما يدعوه الناس الكامِلون بالحب. وإذا ما كان هذا بالنسبة لهم شيئاً مجبولاً بطينتهم، فإنه يحتفظ بأهميته الخاصة، أما ما يقابله في داخلي فلسوف يكون بالتأكيد رائعاً ورهيباً.

وهكذا قرر أن يُغرم بباميللا، البدينة الحافية، وهي تحمل على ظهرها ملاءة حمراء، ثم ما تنفك تضطجع على بطنها فوق العشب، يداعبها النعاس، تحادث عنزتها، وتستنشق عبير الزهور.

لكن تلك الأفكار التي صاغته ببرودة تامة يجب أن لا تقودنا لكي ننخدع بها. ما أن رأى ميداردو باميللا حتى خبر إحساساً غامضاً يحرك الدم في عروقه، كان هذا شيئاً لم يختبره منذ أمد، وهكذا هرع نحو اجترار تلك الأفكار التي أثارت فيه نوعاً من الخوف.

وفي طريق عودتها، منتصف النهار، لاحظت باميللا أن تويجات نبتة

المارغريتا قد شُطرت إلى نصفين، أما النصف الآخر منها فقد كان قد قُطف.

قالت: ياويلتي، هل كان يجب أن يحدث هذا بالضبط لي أنا من بين فتيات الوادي.

لقد أدركت أن الڤيسكونت قد أغرم بها، وهكذا جمعت أنصاف المارغريتا المتبقية، وحملتها معها إلى البيت، ثم دسّتها بين صفحات كتاب القداس.

وعند الظهيرة، توجهت صوب براتوديللا موناكه لكي ترعى بطاتها وتجعلها تسبح في المستنقع. كان المرج مملوءاً بأنواع الجزر الأبيض المتناثر هنا وهناك، ولكن ما حدث للمارغريتا كان قد أصاب هذه الزهور، كما لو أن كل قسم من هذه الأزهار العنقودية قد قُطع بمقص إلى نصفين، قالت:

- يا ويلتي، إنه يريدني أنا بالضبط.

وهكذا جمعت حِزم الجزر المشطور، لكي تضعه في إطار زجاج الخزانة، ولم تعد تفكر بشيء مطلقاً، فقد ربطت ضفيرتها حول رأسها، وخلعت ملابسها، وانغمست تغتسل في البركة مع بطاتها.

وعند حلول المساء، وبينما هي عائدة عبر الحقول إلى البيت، لاحظت وجود نبات يقال له سوفيوني، وقد شاهدت باميلا أن ريشات هذه النباتات كانت قد فقدت نصفها، وكأن أحداً ما قد انبطح أرضاً، وراح ينفخ في جزء منها محتفظاً بالجزء الباقي، أو لعله كان نصف فم هو الذي ينفخ، وهكذا انخرطت باميلا تجمع بعضها ثم تنفخ فيها فيتطاير الريش منها بعيداً وهي تردد:

- يا ويلتي، إنه يريدني أنا بالضبط، كيف ستنتهي هذه القصة؟!

كان منزل باميللا صغيراً جداً، لدرجة أنه عندما يوضع الماعز في الطابق الأول والبط في الطابق الأرضي لا يتبقى منه شيء. وكان النحل ينتشر محيطاً به، ذلك أنهم كانوا يحيطون المنزل بخلايا النحل. أما داخل الأرض فقد اكتظ بالنمل، بحيث أن أي يد تمتد إليه كان لا بدَّ لها أن تخرج سوداء مملوءة به.

ولما كانت الأشياء هكذا، فإن والدة باميللا كانت تفترش التبن وتغط في نومها، أما والدها فقد كان ينام في خزان كبير وفارغ، في حين كانت باميللا تنام في مضجع مصنوع من القماش والشِبَاك معلق بين شجرتي التين والزيتون. عند العتبة توقفت باميللا؛ كان ثمة فراشة ميتة، وقد لصق أحد أجنحتها وجزء من الجسم بصخرة. أطلقت باميللا صرخة، ثم نادت أباها وأمها. قالت باميللا: من كان هنا؟

رد الأب والأم: لقد مرّ الڤيسكونت من هنا منذ قليل، وقال إنه كان يطارد فراشة لدغته.

قالت باميللا: لم يسبق أن لدغت الفراشات أحداً.

ـ مه، حتى نحن سألناه الشيء نفسه.

قالت باميللا: الحقيقة هي أن الڤيسكونت قد أغرم بي، فيجب أن نهيء أنفسنا لما هو أبشع من ذلك.

ـ أوه، أوه، لا تتركي هذه الأفكار تسيطر عليك، لا تبالغي في الأمر.

قال العجوزان ذلك كما جرت عادة كبار السن في الرد على الشباب الذين يكلمونهم بهذه الطريقة.

وفي صبيحة اليوم التالي، توجهت باميللا صوب الصخرة التي تجلس عليها عادة عندما ترعى معزتها. وهناك أطلقت صرخة، لأن الصخرة كانت قد تشوهت، إذ أُلصق عليها أنصاف خفافيش وأنصاف نوع من

الحيوانات البحرية يُدعى ميدوسات. كان قد خرج من إحداها دم أسود، أما الأخرى فخرج منها سائل لزج وصمغي. الأولى فرشت أجنحتها، على حين تصلّبت ويبست الأخرى. وقد أدركت الراعية بأن هذه رسالة. كانت الرسالة تقول: «إن الموعد هذا المساء عند شاطئ البحر»، وهكذا تشجعت باميلا وذهبت إلى هناك.

عند شاطئ البحر، افترشت الفتاة الأرض وهي تصيخ السمع لانسياب الأمواج البيضاء. لم يكن الشاطئ رملياً بل كانت الأرض مفروشة بالحصى، وفوق الحصى كان يمكن سماع صوت جواد ميداردو الذي توقف؛ حلّ نفسه، ونزل من على السرج وقال:

ـ لقد قررت يا باميلا أن أُغرم بك.

وبينما كان يهم بها كانت ترد: هل هذا ما دعاك إلى تشويه الطبيعة؟

تنهد الڤيسكونت قائلاً: باميلا، هذه هي اللغة الوحيدة التي يمكننا أن نتخاطب بها، إن كل لقاء بين كائنين هو تمزيق لهما، هيا تعالي معي، إني أعرف أن هذا سيء جداً بالنسبة لك، لكنك سوف تكونين أكثر اطمئناناً من أي كائن آخر، فأنا أقترف الشر كما يفعل الجميع، ولكني بخلاف الآخرين مالكٌ لزمام الأمور في يدي بثقة واطمئنان.

ـ وهل ستمزقني أنا أيضاً كما فعلت مع المارغريتا والميدوسات؟

ـ لست أدري بالضبط ما الذي سأفعله بك، ولكنك بالتأكيد ستهبينني أشياء لم أكن أحلم بمثلها قط. سوف أحملك إلى القصر، وستسكنين هناك حيث لا يمكن لأي مخلوق أن يراك، وستكون لدينا أيام وشهور لفهم ما الذي يمكننا فعله من أجل استنباط طرائق جديدة تجعلنا نستمر سوية.

كانت باميللا مضطجعة على الحصى، أما ميداردو فقد كان راكعاً على ركبته قريباً منها، كان يتحدث وهو يومئ بيده، لكنه لم يمسها قط.

ـ حسناً، يجب أن أعرف مسبقاً ما الذي ستفعله بي، سوف تعطيني مهلة للتفكير حيث سأقرر بعد ذلك هل سأذهب معك إلى القصر أم لا.

كان الڤيسكونت قد اقترب بيده شيئاً فشيئاً من وجنة باميللا، كانت يده ترتجف، ولم يكن من الممكن فهم ما إذا كانت تتجه لمداعبتها أم لخدشها، لكنه لم يكن قد مسّها بعد عندما سحب يده رافعاً إياها.

قال وهو يقفز فوق جواده: إني أريدك في القصر، سوف أعد لك الجناح الذي ستقطنين فيه، أما الآن فإني أترك لك يوماً واحداً للتفكير، وفي الغد يجب أن تقرري.

قال هذا ثم طفق يخب بجواده على طول الساحل.

في صباح اليوم التالي، صعدت باميللا كما جرت العادة إلى شجرة التوت لقطف الثمار، فتناهى إلى مسامعها صوت أنين وأجنحة ترفرف بين أغصان الشجرة وأوراقها. للوهلة الأولى لم تسقطها المفاجأة، وعلى غصن عالٍ جداً كان قد رُبط ديك من جناحه، وكان ثمة شرانق ضخمة ذات وبر تقوم بافتراسه، وعشّ كامل لفراشات وحشرات كريهة تعيش على الأغصان. كان الديك قد علق تماماً في ذروة الشجرة.

كانت هذه بالتأكيد إحدى رسائل الڤيسكونت الرهيبة، أما باميللا فقد فسرتها على أنها تقول: «غداً عند الشفق سنلتقي في الغابة».

وبحجة ملء كيس من ثمر الصنوبر، صعدت باميللا إلى الغابة، عندها برز ميداردو فجأة من مكمنه خلف أحد جذوع الأشجار، وكان يتكئ عليه. قال لباميللا: إذاً، هل قررت المجيء معي إلى القصر؟

كانت باميللا تضطجع فوق أبر الصنوبر، لقد قررتْ أن لا تذهب،

لكنها قالت: يمكنك المجيء لرؤيتي في الغابة كلما شعرت بحاجة إليّ.

ـ سوف تأتين معي إلى القصر، لقد هيّأت لك الجناح حيث ستقيمين، وحيث ستكونين السيدة المطلقة هناك.

ـ ربما كنتَ تريد سجني هناك، وربما رغبت في حرقي يوماً ما، أو جعلي فريسة للفئران. لا، لا، لقد سبق أن قلت لك إني سوف أكون مُلْكاً لك إذا ما رغبت بذلك، ولكن هنا فوق إبر الصنوبر.

كان الفيسكوت ثاوياً عند رأس باميللا، وكان يحمل في يده إبرة صنوبر، فقربها نحوها ممرراً إياها حول رقبتها، شعرت باميللا بقشعريرة، لكنها حافظت على رباطة جأشها، وقد شاهدت وجه الڤيسكونت وهو منحنٍ نحوها، ذلك البروفيل الذي يبقى بروفيلاً حتى لو نظر المرء إليه من الأمام، أنصاف الأطواق التي تكشف عنها الأسنان وتبرز عند كل ابتسامة وكأنها فتحة مِقَص. ضغط ميداردو على إبرة الصنوبر في يده، ثم هرسها، وهبّ واقفاً وهو يقول:

ـ أريدك حبيسة في القصر، هذا ما أرغب به أنا.

أدركت باميللا أنها تخاطر بتعريض نفسها للتهلكة، لكنها حركت قدميها العاريتين في الهواء وهي تقول: هنا في الغابة لن أرفض أن أكون ملكاً لك: ولكن حبيسة هناك، هذا ما لن يحدث أبداً حتى لو هلكت.

ـ سوف أعرف كيف آخذك إلى هناك بنفسي.

قال ميداردو هذا وهو يمرر راحته فوق رقبة الجواد الذي كان قد اقترب وكأنه يمر مصادفة من هنا، امتطى الڤيسكونت ظهر الجواد ثم غادر المكان مختفياً عبر مسالك الغابة.

في تلك الليلة غفت باميللا في مضجعها بين شَجَرتي التين والزيتون، وفي الصباح، يا للهول! عثرت في أحد الجحور على جثة مدماة، كانت

عبارة عن نصف سنجاب، وقد شُطر كما هي العادة طولياً، لكن ذيله الأصفر والمائل للحمرة لم يكن قد مُسّ أبداً.

قالت لوالديها: يا ويلتي، أية مسكينة أنا! هذا الڤيسكونت لن يدعني أحيا بسلام.

مسح كل من الأب والأم بيدهما جثة السنجاب، ثم قال الأب:

ـ لكن الذيل لم يمس أبداً، ربما كان هذا مؤشر خير!

قالت الأم: ربما بدأ يغدو أكثر طيبة من ذي قبل.

قال الأب: إنه يشطر على الدوام الأشياء نصفين، ولكن هذا السنجاب يبدو جميلاً، وقد أخذته الرأفة به لهذا السبب.

قالت الأم: ربما كانت هذه الرسالة تشير إلى أنك طالما احتفظت بطيبتك وجمالك فإنه لن يمسك بسوء.

دَسَّتْ باميللا يديها بين ثنايا شعرها وهي تقول:

ـ ولكن ما هذا الذي أسمعه منكما، إن وراء الأكمة ما وراءها، لقد تحدث إليكما الڤيسكونت....

قال الأب: لا لم يقل شيئاً، ولكن سبق له أن أعرب عن رغبته بالمجيء هنا؛ ربما أشفق علينا لفرط بؤسنا.

قالت العجوز: ربما أخذ السيد ميداردو يغدو أكثر طيبة يا ابنتي.

ـ أمي، إذا جاء للتحدث إليكما ثانية، اربطاه إلى النملية واتركاه هناك.

في تلك الليلة شبَّ حريق في كومة التبن حيث اعتادت أن ترقد الأم، كما قُلِب الخزان الذي اعتاد أن ينام فيه الأب، وفي الصباح وبينما كان العجوزان يتأملان هذه الكارثة ظهر الڤيسكونت بغتة. قال:

ـ إنني آسف لأني بثثت الرعب فيكما، لكنني لم أجد طريقة أخرى لكي أدخل معكما في صلب الموضوع. إن الأمر يتعلق بابنتكما، فهي تعجبني وأريد أن أصطحبها إلى القصر، لذا فإني أرغب في أن أحظى بها، سوف تتغير كل حياتها، وحياتكما أيضاً.

قالت العجوز: هل تتصور حضرتك أننا لن نكون مسرورين لذلك، ولكنك تعرف نمط تفكير ابنتي، لقد طلبت منّا أن نثير خلية النحل في وجهكَ.

ثم قالت الأم: هل تتصور حضرتك أنها طلبت منا أن نشدّ وثاقك إلى النملية.

ومن حسن الحظ أن باميللا عادت في ذلك اليوم مبكرة على غير عادتها، ففوجئت بوالديها وقد كُمَّ فم كلٍ منهما، وشُدَّ وثاقهما، الأول إلى خلية النحل والثانية إلى النملية. ومن حسن الحظ أن النحل يعرف العجوز جيداً، وأن النمل كان منشغلاً عن الأم بأشياء أخرى مما حمى الأم من العض، وهكذا تم إنقاذ الاثنين.

قالت باميللا: هل رأيتما بأعينكما كيف غدا الڤيسكونت طيباً؟

لكن العجوزين كانا يدبران أمراً ما، وفي اليوم التالي أمسكا بباميللا وحبساها في البيت مع البهائم، ثم أرسلا إلى القصر من يقول للڤيسكونت بأنه إن كان يرغب في ابنتهما فليُرسل أحداً ما لأخذها، وأنهما مستعدان لتسليمه إياها. لكن باميللا كانت تجيد التحدث إلى البهائم، فقد نقرت البطة الحبل الذي كان يربطها، واستطاعت العنزات أن تفتح الباب برؤوسها، وهكذا هرعت تركض مصطحبة معها البطة والعنزة اللتين كانت تفضلهما، ثم ذهبت لتحيا في الغابة، كانت مختبئة في جُحرٍ بصحبة صبي كان يحمل إليها الطعام والأنباء.

لقد كنت أنا ذلك الصبي. كان العيش في الغابة بصحبة باميللا جميلاً للغاية، كنت أحمل إليها الفاكهة والجبن والسمك، وكانت تسقيني في المقابل بضع كؤوس من حليب الماعز وتعطيني بيض البطة. وعندما كانت تذهب كي تستحم في البركة كنت أنا من يقوم بدور الحارس كي لا يراها أحد. أما الڤيسكونت فقد كان يمرّ عبر الغابة، لكنه لم يصادف أن اقترب منّا، كان يظهر وحسب بطلعته الحزينة والمألوفة. كان الحصى الذي يُلقي به بين الفينة والأخرى يكاد يمسها هي وحيواناتها، وأحياناً يهوي جذع شجرة كانت تستند إليه بضربة فأس في أسفله، وأحياناً كانت تظهر بقايا حيوانات ميتة.

كان خالي يخرج للصيد، حاملاً معه سهامه التي كان يتمكن من إطلاقها بوساطة ذراعه الوحيدة الباقية، لكنه كان قد غدا أكثر رهافة وكآبة، وكأن عذابات جديدة قد أخذت تنخر جسمه.

في إحدى المرات رافقني الدكتور تريلاوني عبر الحقول عندما صادفنا الڤيسكونت ممتطياً صهوة جواده. حاصر ميداردو الدكتور بجواده حتى أوقعه أرضاً، ومن ثم توقف الجواد، وترجل الڤيسكونت واضعاً قدمه على صدر الانكليزي؛ قال خالي: هلّا شرحت لي أيها الدكتور سر شعوري بأن الساق التي فقدتها تجعلني أعاني من تعب شديد، وكأنني كنت أمشي طويلاً، ما عساه يكون هذا؟

اضطرب تريلاوني، وراح يغمغم كما دأب على فعلِ ذلك. غادرَنا الڤيسكونت، لكن يبدو أن سؤاله كان قد أصاب الدكتور، لذا فقد أطرق مفكراً، وقد أسند رأسه بيديه. لم يسبق لي أن لاحظت اهتمامه بالطب البشري كما حدث هذه المرة.

7

حول براتوفونغو نمت بعض دغلات نعناع الببريتا، وكان ثمة أسيجة من الروز مارينو، ولم يكن يُعرف ما إذا كانت هذه النباتات قد نمت بشكل عفوي أم أنها جزء من حديقة للنباتات العطرية. كنت أتجول وقد امتلأ صدري بهواء عليل، أبحث عن طريقٍ يوصلني إلى المربية العجوز سيباستيانا.

ومنذ أن اختفت سيباستيانا في الدرب الذي يفضي إلى قرية المجذومين وأنا أحس بيُتْم حقيقي. كنت أشعر بالأسى لأني لم أقدر أن أعرف أي شيء عنها، وقد سألت غالاتيو، لكنه كان عدوّاً للأطفال الذين كانوا ينتظرون قدومه وهم فوق قمم الأشجار ليقذفوه بوزغات حية، وكان يرد بأجوبة ساخرة وغير مفهومة بصوته الحلو والرنان. وقد نما في داخلي فضول حقيقي لدخول عالم براتوفونغو، هذا إذا ما أضفنا الرغبة في رؤية المربية الكبرى، لذا فقد رحتُ أحوم حول الجنبات العطرية.

ثم ها هو ذا أخيراً أحد ما يطل، وتبرز هيئة مخلوق يرتدي ثياباً فاتحة اللون، وقد اعتمر قبعة من القش. كان يسير نحو البلدة، ولم يكن هذا سوى مجذوم عجوز، كنت أرغب بسؤاله عن المربية، فاقتربت منه حتى تيقنت بأنه سوف يسمع صوتي دون أن تكون ثمة حاجة للصراخ. قلت:

ـ هيه، أيها السيد المجذوم.

ولكن وفي تلك اللحظة بالذات، وربما كان صوتي هو الذي فعل فعله، ظهر أمامي شكل آدمي آخر، كان وجهه جلداً جافاً، لكن لحيته كانت بيضاء، وعلى الفور تناول من جيبه مزماراً وأرسل نحوي صفيراً حاداً وكأنه يهزأ بي. عندها تنبَّهتُ إلى أنه في أثناء الظهيرة المشمسة يخرج المجذومون إلى الجنبات ويستلقون هنا وهناك، وها هم الآن ينهضون شيئاً فشيئاً وهم يرتدون لباسهم الشفَّاف، ويسيرون عكس اتجاه الضوء نحو براتوفونغو، وقد حملوا في أيديهم آلات موسيقية أو آلات عمال الحدائق، وهم يحدثون صخباً وجَلَبة. وبينما كنت أحاول الابتعاد عن ذلك الرجل الملتحي وجدت نفسي بالقرب من إحدى المجذومات التي فقدت أنفها. كانت تُسرِّح شعرها مختبئة بين أغصانٍ وأوراقِ شجر الغار، ولما كنت أحاول القفز بعيداً تَنبَّهتُ إلى وجود عدد كبير من المجذومين الآخرين، وقد أدركت أن هذه الطريق لا تقود إلا إلى براتوفونغو، حيث أسطحة القش مزينة ومزركشة بشرائط وقد بدت قريبة جداً. وبالضبط عند جذع شجرة الكينا تلك كان المجذومون يعيرونني انتباههم من حين لآخر، بطرف أعينهم، وكنت أحس بأني واقع في منتصف مسيرتهم تلك، وكأنهم كانوا يقودونني إلى براتوفونغو كحيوان أُلقِيَ القبض عليه. وفي البلدة كانت جدران البيوت قد دُهنت بلون ليلكي، وعلى إحدى النوافذ ظهرت امرأة بِلباسٍ نصف مهمل ورثّ، وقد لُطِّخ وجهها وصدرها ببقع ليلكية، كانت عازفة قيثارة؛ صرختُ: لقد عاد مهندسو الحدائق.

ثم عزفت على قيثارتها، وكان ثمة نساء أخريات متجهات صوب النوافذ، وكن يغنين: أهلاً وسهلاً بمهندسي الحدائق.

أما أنا فقد كنت أجاهد للحفاظ على موقعي في وسط هذا الزقاق

الضيق، وأن لا ألمس أياً منهم، ولكنني كنت أجد نفسي وكأنني في مفترق طرق، محاطاً بالمجذومين من كل حدب وصوب. كان الرجال والنساء يرقدون عند أعتاب بيوتهم، وقد ارتدوا ألبسة شبيهة بألبسة الرهبان، وكانت بالية ورثة، وكالحة اللون وقد راحت تشف عن الآثار التي خلّفها الطاعون والحياء، وبين شعورهم عقدوا زهوراً بيضاء وشقائق النعمان. كان المجذومون قد شرعوا بإقامة حفلة موسيقية صغيرة، ربما أمكن لي أن أقول إنها على شرفي. بعضهم كان يميل كمانه نحوي وقد أسرف في ميل القوس، آخرون بالكاد كنت أراهم، كانوا يقلدون قفزات الضفادع، وكان ثمة آخرون وقد أخذوا يطلعونني على ألعاب غريبة تصعد وتهبط وهي مشدودة إلى خيط. كان يبدو أن الحفل قد أُقيم بهذه الحركات والمعزوفات الموسيقية، لكنهم ما انفكوا يرددون مقطعاً غنائياً يقول: «الصوص دون بقع، سيصيبه الوباء، ولسوف يلطخ بالبقع».

قلت بصوت مرتفع: إني أبحث عن مربيتي، العجوز سيباستيانا، هل يمكنكم أن تدلوني أين عساها تكون؟

انفجروا ضاحكين، وقد ارتسمت على ملامحهم مسحة من ادعاء وخبث، صرختُ: سيباستيانا، سيباستيانا، أين أنتِ؟

قال أحد المجذومين: ها هي ذي أيها الصبي، أيها الصبي الطيِّب.

ثم أشار نحو أحد الأبواب.

فُتِح الباب، وخرجت منه امرأة ترتدي لباساً زيتوني اللون، ربما كانت من المشرق، نصف عارية، وقد تزينت بالوشم، وكانت تجر وراءها ذيلاً أشبه بلعبة، ثم انخرطت ترقص بشكل ماجن ومتهتك. لم أعد أعي بعد ذلك ما الذي حدث. رجال ونساء يقفز بعضهم فوق بعض؛ لقد بدأ

ما فهمت لاحقاً أن بالإمكان تسميته بالعربدة. ومن ثم تضاءلت وتضاءلت عندما ظهرت بغتة العجوز الكبيرة سيباستيانا من وسط هذه الدوامة.

قالت: أيها الكريهون، الوسخون، ارأفوا على الأقل بحال روح بريئة.

تناولت يدي وسحبتني خارج الدائرة بينما كان الآخرون يهزجون «الصوص دون بقع، سيصيبه الوباء، ولسوف يُلطخ بالبقع».

كانت سيباستيانا ترتدي ثوباً بنفسجياً فاتح اللون، يشبه الطراز الرهباني، وكانت وجنتاها قد لُطختا ببعض البقع، ولكنها لم تكن قد تغضنت بعد. كنت فرحاً جداً بعثوري على المربية، ولكن الأسى تسلل إلى داخلي، لأنها أمسكت يدي، ولابد أن عدوى الجذام قد سرت فيّ، وقد صرحت لها بذلك.

أجابت سيباستيانا: لا تخف، لقد كان والدي قرصاناً، وجدي كان زاهداً، إني أعرف فضائل جميع الأعشاب المضادة للمرض، المحلية منها والعربية. إنهم يتداوون بالحبق ونبتة المالافا، أما أنا، فصامتة، صامتة، أتداوى بغلي الماء مع نبتة البوراجينة مما يجعلني في منجى من المرض مادمت حية.

تساءلت: ولكن ما تلك البقع الظاهرة على وجهك أيتها المربية؟

كنت قد بدأت أشعر بنوع من الطمأنينة، لكني لم أكن قد تحمست للأمر بعد.

ردت: سحقاً، إني أحاول أن أجعلهم يعتقدون بأنني أنا أيضاً مجذومة مثلهم، هيا تعال معي لأسقيك بعض الماء المغلي بالأعشاب، إنه

حار، حار جداً، ذلك لأن الاحتراس واجب عندما يتجول المرء في تلك الأنحاء.

قادتني إلى بيتها، كان كوخاً صغيراً قصياً، لكنه نظيفٌ وقد رُتِّبَ بعناية، وانخرطنا نتجاذب أطراف الحديث. كانت تحاول الاستفسار مني، لكنها ما انفكت تقاطعني:

ـ ولكن ميداردو؟ ميداردو؟ كم هو خسيس، كم هو نذل، ماذا؟ هل هو مغرم؟ آه أيتها الفتاة المسكينة، وهنا، هنا، آه إنكم لا تتصورون، لو أنك فقط تتخيل الأشياء التي يبددونها، إننا نقتطع كل شيء من فمنا لنعطيه لغالاتيو، هل تعرف ما الذي يفعلونه هنا؟ إن غالاتيو هذا طيب بعض الشيء، أتدري؟ إنه أمر شنيع، ليس هو الوحيد، إنما الأشياء التي يقومون بها في الليل، وفي النهار! ثم! هذه النساء، لم يحدث لي أن صادفت في حياتي من هو أقل منهن حياءً. إنهن فوضويات، يرتدين الأسمال، أوه، إني على استعداد لقول ذلك في وجوههن، ولكن هل تعرف ما الذي يقلنه؟

كنت مغتبطاً جداً لزيارتي هذه للمربية، وفي اليوم التالي ذهبت لصيد ثعبان الماء (الأنقليس)، حيث تركت السنارة في تيارٍ عريضٍ وجارفٍ، ثم غفوت. لست أدري كم استغرق نومي، لكن صخباً ما أيقظني، فتحت عيني فأحسست بيد تركن فوق رأسي، وفوق تلك اليد كان ثمة عنكبوت أحمر، كثيف الشعر، استدرت نحوه، فوجدت خالي في معطفه الأسود.

قفزت يملؤني الفزع، ولكن في تلك اللحظة عض العنكبوت يد خالي، ثم اختفى مسرعاً. رفع خالي يده نحو شفتيه، مصّ الجرح برقة ثم

قال: لقد رأيت عنكبوتاً ساماً حول عنقك بينما كنت تغفو، لقد نزل عن هذا الغصن، مددت يدي وها هو ذا يعضني.

لم أصدق كلمة واحدة مما قاله. لقد سبق له أن حاول لمرات ثلاث أن يمس حياتي بوساطة طرائقه هذه، ولكن من المؤكد الآن أن هذا العنكبوت قد عض يده، وها هي ذي تنتفخ.

قال ميداردو: أنت ابن أختي؟

ـ أجل.

قلت وأنا أشعر بنوع من الاستغراب، ذلك أن هذه هي المرة الأولى التي يحاول التعرف فيها عليّ.

قال: لقد تعرفت عليك في الحال.

ثم أضاف: آه، أيها العنكبوت، عندي يد واحدة وأنت تريد أن تسممها، ولكن من المؤكد أنه من الأفضل أن يهاجم يدي على أن يمس رقبة هذا الصبي الصغير.

لم يسبق، على حد علمي، أن تحدث خالي بهذه الطريقة أبداً. كان الشك في أنه يقول الحق، وأنه قد غدا هكذا دفعة واحدة طيب القلب، هذا الشك مرّ في خاطري، لكنني طردته في الحال. لقد سَكَنَتْ في داخله المصائد والتكلف، هذا مؤكد. كان يظن أنه قد تغير كثيراً، وأن تعابيره لم تعد حادة وقاسية وإنما واهنة ودقيقة، ربما كان الخوف أو ألم العض هو السبب في هذا التغيير. ولكي يعطي هذا الانطباع، فإن معطفه الأسود كان قد غدا بالياً بعض الشيء، كان ممتلئاً بالأوراق اليابسة وبقايا الكستناء الملتصقة بأهدابه. حتى ثوبه هذا لم يعد يبدو كأنه من المخمل الأسود، بل من قماش بالٍ وحلَّ لونه فبَهُتَ، حتى قدمه لم تعد مغموسة في حذاء

فرسان جلدي، بل غدا كأنه حذاء من الصوف ذو الأذيال الزرقاء والبيضاء.

ولكي أظهر له أني غير عابئ به، توجهت صوب السنارة عليّ أجد الأنقليس وقد علق بها، لكنني لم أجد أي أنقليس وإنما على العكس وجدت خاتماً لامعاً وقد علق بطرف السنارة. كان من الذهب المطعم بالماس. جذبته نحوي، وفوق الصخرة شاهدت شعار الترّاليين وقد حُفِرَ على ظهر الخاتم.

كان الڤيسكونت يتابعني بنظراته. قال: لا تعجب من ذلك، فبينما كنت أمرّ من هنا شاهدت الأنقليس وقد علق بطرف السنارة، وقد اجتاحني شعور بالرأفة تجاهه، ورغبة في تحريره، لكنني سرعان ما فكرت بالأسى الذي يمكن أن يصيب الصياد، فقررت أن أضع خاتمي مكان الأنقليس، إنه آخر شيء ذي قيمة لدي.

ظللت واجماً، فاغر الفم، فتابع ميداردو: لم أكن قد عرفت بعد أن الصياد هو أنت، ثم ما لبثت أن شاهدتك تنام بين ثنايا العشب، ولكن اللذة التي شعرت بها من جراء رؤيتي لك تحولت بغتة إلى جزعٍ حين رأيت ذلك العنكبوت وهو يتجه نحوك؛ أما الباقي فأنت تعرفه.

قال هذا وهو يحدق بحزن في يده التي انتفخت وغدت بنفسجية اللون، كان يمكن أن يكون كل هذا مجرد عملية متابعة لخداعه الخبيث، لكنني أحسست كم سيكون جميلاً أن تخالجه هذه المشاعر، وأية فرحة كانت ستحملها هذه الأحاسيس إلى سيباستيانا وباميلا وإلى كل الأشخاص الذين يعانون من شروره. قلت لميداردو: خالي، انتظرني هنا، سوف أهرع إلى المربية سيباستيانا التي تعرف كل الأعشاب التي يمكن أن تداوي بها عضة العنكبوت تلك.

قال الڤيسكونت وهو يضطجع واضعاً يده فوق صدره: المربية سيباستيانا! كيف حالها؟

لم أكن أجرؤ على أن أقول له إن سيباستيانا لم تكن تعاني من الجذام أبداً، بل اقتصرت على أن أقول له: إنها بين بين، سوف أرحل.

ثم ولّيت الأدبار، تحدوني الرغبة في أن أعثر لدى سيباستيانا على حل لهذه الطلاسم الغريبة. وجدت المربية في كوخها. كنت ألهث من الركض، وقد كاد صبري أن ينفد. قمت بشرح كل شيء لها بشكل غامض ومشتت، لكن العجوز أبدت اهتماماً أكبر بالعضة، أكثر من اهتمامها بطيبة ميداردو تلك:

ـ عنكبوت أحمر! هل قلت ذلك؟ أجل إني أعرف الأعشاب اللازمة لعلاج حالة كهذه، لقد سبق في إحدى المرات أن انتفخت ذراع حطاب... إيه، هل قلت إنه أصبح طيباً؟ ولكن ماذا تريد أن أقول لك؟ لقد كان على الدوام صبياً هكذا، حتى هو نحتاج إلى التعامل معه بهذه الطريقة، ولكن أين وضعت تلك الأعشاب؟ يكفي أن تكمد يده، لقد كان خبيثاً منذ نعومة أظفاره، ميداردو، آه، ها هي ذي الأعشاب، لقد سبق لي أن خبأت كيساً صغيراً، ولكن هكذا على الدوام، عندما يقترف إثماً يهرع إلى المربية باكياً، هل هي عميقة تلك العضة؟

قلت: إن يده اليسرى منتفخة هكذا.

ضحكت المربية: آه، آه، يا لطفلي، اليسرى، ولكن أين ترك السيد ميداردو يده اليسرى؟ لقد تركها في بوهيميا عند أولئك الأتراك، فليذهبوا إلى الجحيم، لقد تركها هناك، الجزء الأيسر من جسمه كله.

قلت: هذا حق أيضاً، لقد كان هناك وكنت أنا هنا، كانت يده بهذا الاتجاه، كيف أمكن أن يحدث هذا؟

قالت المربية: الآن لم تعد تميز بين اليمنى واليسرى، لقد تعلمتَ ذلك منذ كنت في الخامسة من عمرك.

أنا لم أعد أفهم شيئاً، من المؤكد أن المربية كانت محقة، لكنني تذكرت كل شيء عكس ما حدث.

ـ أعطه هذه الأعشاب، هيا، كن أكثر مهارة.

قالت المربية هذا، وطفقت أركض.

وصلت الجدول وقد كادت أنفاسي تتقطع، ولكن خالي لم يكن موجوداً. تطلعت حولي، لقد اختفى هو ويده المنتفخة المسممة. حل المساء، وكنت لاأزال أتجول في حقل الزيتون، ثم، ها أنا ذا أراه الآن، منغمساً في معطفه الأسود، وهو يقف على قدمه عند الشاطئ متكئاً إلى جذع شجرة، لكنني كنت أرى ظهره وحسب، إذ كان يتطلع صوب البحر، تملّكني الخوف مرة أخرى، وبصوت واهن قلت:

ـ ها هي ذي الأعشاب من أجل العضة يا خالي.

استدار نصف الوجه على الفور وهو مكفهر، وصرخ.

ـ أية أعشاب؟ وأية عضة؟

قلت: ولكن الأعشاب من أجل الشفاء....

هاهي ذي تعابيره الحلوة تختفي مجدداً، مرت برهة، ربما استعاد هدوءه رويداً. رسم ابتسامة عريضة، يمكن القول إنها متكلفة بعض الشيء. قال: أجل، أحسنت، ضعها في داخل هذا الجذع، سوف آخذها لاحقاً.

أطعته، ومن ثم دسست يدي في جوف الجذع، كان عشٌ دبابير، وها هي ذي تهاجمني. هرعت أركض يلاحقني سرب الدبابير، قذفت

بنفسي في التيار الهادر، انغمست أكثر سابحاً تحت الماء، واستطعت أن أتخلص من الدبابير، رفعت رأسي، فتناهت إلى مسعمي ضحكة الڤيسكونت وهو يبتعد. لقد استطاع خداعنا مرة أخرى، لكنني لم أكن أفهم مغزى أشياء كثيرة. يممت شطر الدكتور تريلاوني لكي أحدثه عما جرى؛ كان الانكليزي ثاوياً في كوخه الشبيه بالقبر، وتحت ضوء قنديل باهت، وجدته منحنياً يقرأ في كتاب عن تشريح الجسم البشري، كان هذا شيئاً نادرَ الحدوث. سألته: دكتور، هل سبق أن نجا أحد ما بعد عضه عنكبوت أحمر؟

قفز الدكتور صائحاً: هل قلت عنكبوت أحمر، من الذي عضه العنكبوت الأحمر هذه المرة؟

قلت: خالي الڤيسكونت، لقد حدث أن حملت له الأعشاب من لدن المربية عندما بدا لي طيب الطوية، لكن الشر ما لبث أن تأوَّبَه رافضاً نجدتي تلك.

قال تريلاوني: لقد عالجت منذ لحظات يد الڤيسكونت من عضة العنكبوت الأحمر.

- قل لي أيها الدكتور، هل بدا لك طيباً أم شريراً؟

عندئذٍ روى لي الدكتور كيف سارت الأمور معه.

لما تركت الڤيسكونت مضطجعاً فوق العشب ويده مصابة، حدث أن مرّ تريلاوني بالقرب منه، داهمه الخوف كما سبق أن حدث له مراراً، حاول الاختفاء خلف الأشجار، لكن ميداردو كان قد سمع صوت خطواته، فنهض وصرخ: إيه، من هناك؟

ففكر الإنكليزي أنه «لو اكتشف الڤيسكونت بأني أختبئ خلف

الأشجار، فمن يدري ما الذي يمكن أن يقوم بفعله ضدي»؛ عندئذٍ فرّ الدكتور لكي لا يُفتضح أمره، لكن قدمه سرعان ما انزلقت وسقط في لجة التيار. ورغم أن الدكتور كان قد أمضى معظم حياته يطوف عبر البحار، إلا أنه لم يكن يجيد العوم، لذا فقد راح يتخبط وسط البحيرة طالباً النجدة. عندئذٍ قال الڤيسكونت: «انتظرني»، ثم توجه صوب الشاطئ، وانغمس في الماء وهو يحمل بيده المصابة جذر شجرة ناتئ، ثم مط جسده حتى قاربت قدمه أن تصل إلى الدكتور، ولما كان طويلاً ورهيفاً فقد جعل نفسه أشبه بالذيل وذلك لكي يتمكن الدكتور من التعلق به.

ولما نجا الدكتور راح يتمتم: أوه، أوه، يا سيدي، شكراً، حقاً ياسيدي، كيف يمكن لي أن..

ثم عطس في وجهه، ذلك أنه كان قد أصيب بالبرد، قال ميداردو: تحياتي لك، ولكن تدثر جيداً.

ثم تناول معطفه وألقى به فوق كتف الدكتور الذي احتمى به وقد راح يحس بنفسه مضطرباً ومشوشاً أكثر من أي وقت مضى، قال الڤيسكونت:

ـ خذه، إنه لك.

عندئذٍ تنبه تريلاوني إلى انتفاخ يد ميداردو.

ـ أية بهيمة سببت لك ذلك.

ـ عنكبوت أحمر.

ـ دعني أداويك يا سيدي.

فحمله إلى بيته الشبيه ببيت حفار القبور، حيث مسح له يده بالعقاقير المضادة ومن ثم ضمدها. على كل فقد أظهر الڤيسكونت له كل

الود والإنسانية، ثم تركه بعد أن وعد برؤيته مرة أخرى وبتوثيق عرى الصداقة بينهما. وبعد أن استمعت إليه وهو يروي لي ما جرى، قلت: أيها الدكتور، لقد عاودَ الڤيسكونت الذي عالجته جنونهُ الشرير. لقد جعلني أضع يدي في عش دبابير.

قال الدكتور وهو يغمز بعينه: لم يكن ذاك هو من عالجته.

- ما الذي تقصده أيها الدكتور؟

- ستدرك ذلك لاحقاً، والآن دعني منغمساً في دراساتي، فنحن مقبلون على أيام عصيبة.

ثم لم يعد الدكتور ينتبه إلى وجودي، ذلك أنه سرعان ما عاد وانغمس في قراءة ذلك الجزء الذي يدرس التشريح البشري. لابد أن ثمة مشروعاً ما في رأسه. ثم غدا في الأيام التي تلت ذلك أكثر تحفظاً واستغراقاً في التفكير. ولكن بعد ذلك توالت الأنباء عن طبيعة ميداردو المزدوجة، فقد صادف أن تاه بعض الصبية في الغابة، واستطاع نصف الآدمي ذاك أن يعثر عليهم متكئاً على عكازه، وأن يصطحبهم بنفسه حتى بيوتهم، وأن يهدي إليهم التين والورد والحلويات؛ ثم إنه أعان بعض الأرامل الفقيرات على حمل ونقل حِزَم من الحطب؛ داوى بعض الكلاب التي عضتها الدبابير، مجموعة من العطايا المجزية وُجدت عند أعتاب بيوت الفقراء، كما جرى تعديل بعض أشجار الفاكهة بعد أن كادت الريح العاتية أن تقتلعها وذلك قبل أن يحرك مالكوها ساكناً.

وبالمقابل، فقد أدى ظهور الڤيسكونت إلى حوادث مؤلمة ومحزنة، فقد وجد بعض الأطفال وقد حُبسوا في كهوفٍ سُدّت أبوابها بالحجارة. سقوط بعض جذوع الأشجار وبعض الحجارة على رؤوس عجائز؛ بعض

الثمار، وقبل أن تنضج وجدت مقطعة إلى أجزاء لا لشيء سوى القيام ببعض الأعمال الشريرة.

ومنذ أمد، ما انفكت سهام الڤيسكونت تصيب بعض طيور السنونو، لا لقتلها بل لإصابتها بالجراح وحسب. الآن يمكن رؤية الكثير من هذه الطيور وهي تحلق في السماء وقد شُدّ وثاق أقدامها أو أجنحتها. وقد شوهد سرب من السنونو وقد شدّ وثاق الواحد مع الآخر كما يحدث عادة في المختبرات التي تضم عصافير. وبالمقابل قيل بأن ميداردو قد نصّب نفسه طبيباً يداوي المرضى.

وفي إحدى المرات هاجمت باميللا عاصفة هوجاء، حيث كانت برفقة عنزتها وبطتها، وقد شوهد حذاء فرسان يبرز من أحد الكهوف الصغيرة، والتي حُفرت للتو، وقد أُسندت ببعض الحجارة. كان ثمة نصف جسدٍ، متدثر بمعطفه الأسود في هذه المغارة الصغيرة. كانت باميللا في سبيلها للهرب، ولكن الڤيسكونت خاطر بالخروج في هذا الجو الماطر والعاصف وقال لها: هيا أيتها الصبية، تعالي واحتمي هنا.

قالت باميللا: لا، لن أحتمي، إن المكان لا يتسع إلا لشخص واحد، أرى أنك راغب في سحقي.

قال الڤيسكونت: لا تخشي شيئاً، سوف أمكث في الخارج، على حين يمكنك الاحتماء في الداخل وأن تظلي قريبة من عنزتك وبطتك.

ـ سوف تبتل العنزة والبطة بالماء.

ـ سترين أنه يمكننا جعلهما تحتميان.

باميللا وقد سمعت عن الأعمال الخيّرة التي يقوم الڤيسكونت بها قالت في سرّها «دعنا نرى»، ثم اندست داخل المغارة، وثوت بطريقة

تجعلها مقابل البهيمتين، على حين وقف الڤيسكونت في الخارج وقد جعل معطفه كمظلة تقيه والعنزة والبطة أيضاً. حدقت باميللا في يده التي تحمل المعطف، أطرقت برهة، ثم عادت تنظر إلى يديها، تقارن الواحدة بالأخرى، ثم ما لبثت أن انفجرت ضاحكة. قال الڤيسكونت: يسرني أن أراك فرحة أيتها الصبية، ولكن لِمَ تضحكين، هل يبدو لك الأمر مثيراً؟

أضحك لأني أدركت للتو ما الذي يجعل أهل بلدتنا يصابون بمسّ من الجنون.

ـ ماذا؟

ـ يقال إنك طيب بعض الشيء وشرير بعض الشيء. ولكن الآن يبدو كل شيء طبيعياً.

ـ لماذا؟

ـ لقد تنبهت الآن بأنك النصف الآخر، أما الڤيسكونت الذي يقطن القصر فإنه هو الخبيث والشرير، إنه النصف الآخر؛ أما أنت الآن، فإنك تمثل نصفك الطيب، النصف الذي كان يُعتقد بأنك أضعته في الحرب، ها هو ذا يعود الآن، إنه نصف طيب.

ـ هذا لطيف، شكراً.

ـ لا، إن الأمر بالفعل كذلك، إني لا أقول هذا مجاملة لك.

هذه هي إذاً قصة ميداردو كما فهمتها باميللا في تلك الليلة. ليس صحيحاً إذن أن قذيفة المدفع قد أصابت جزءاً من الجسم، إنما هو الذي انقسم إلى شطرين. أحدهما عثر عليه رجال الإنقاذ التابعون للجيش، أما الآخر فقد ظل مدفوناً تحت هرم من بقايا المسيحيين والأتراك، لذا لم يتم العثور عليه. وفي قلب الظلام مرّ بالحقل ناسكان، لم يكن من الممكن

التحقق فيما لو كانا مخلصين للدين الحقيقي أم أنهما كانا مجرد منجمين، وكما يحدث عادة في الحروب، فإنهما ظلا يعيشان بين الحقلين؛ أو ربما، الآن يقال إنهما حاولا أن يحدثا مزجاً بين الثالوث المسيحي وإله النبي محمد، تقوى هذين الناسكين الغريبة هي التي وجدت جسد ميداردو المشطور. حملاه إلى كهفهما، وعالجاه ببلسم أعدّاه بنفسيهما حتى تمكنا من إنقاذه؛ وما أن اشتد عود الجريح حتى ودّعَ المنقذَين وقضى شهوراً وسنين يركض كي يصل إلى قصره؛ وقد أذهل الناس الذين مرّ بهم بسبب أفعاله الخيّرة.

وبعد أن روى نصف الفيسكونت حكايته لباميللا، رغب هو أيضاً في أن تحدثه عن نفسها، وقد أوضحت باميللا كيف مكر بها ميداردو الشرير، وكيف أنها هرعت نحو بيتها عابرة الغابات.

وقد تأثر ميداردو برؤية باميللا، وقسّم شفاعته بين فضائل الراعية المظلومة، والحزن الذي ليس له حدود، والذي أحدثه ميداردو الشرير، والعزلة التي يعيشها أبوا باميللا.

قالت باميللا: إن أبي وأمي عجوزان يتسمان بالنذالة، يجب أن لا ترأف بحالهما.

ـ أوه باميللا، فكري بهما قليلاً، كم هما حزينان الآن، في كوخهما العتيق، دون أن يهبّ أحد ما ليعينهما على العمل في الأرض وفي الإسطبل.

قالت باميللا: ليسقط الإسطبل على رأسيهما، لقد بدأت أميل إلى الاعتقاد بأنك رقيق أكثر مما يلزم. وبدلاً من أن تعالج الأمور حسب نصفك الآخر، وحسب كل الأعمال الخسيسة التي يقوم بها، فها أنذا أجدك تحمل الشفقة إلى هذا النصف أيضاً.

ـ وكيف لاأحملها؟ وأنا الذي يعرف أكثر من غيره ماذا يعني أن يكون المرء نصف آدمي. لا أستطيع أن أتنصل من المعاناة من أجله.

ـ ولكنك مختلف، إن الأمر يعنيك بعض الشيء، إنك خيّر.

عندها قال ميداردو الطيب: آه يا باميللا، هذا هو فضل أن يكون الإنسان مشطوراً، إنه يعني القدرة على فهم أي شخص، وما هو العذاب الذي يعانيه أي كائن في هذا العالم من جراء شعوره بأنه ناقص. أنا كنت كاملاً، ومع ذلك لم أكن أفهم جيداً، كنت أتحرك مثل أطرش، غير قادر على أن يقيم جسراً من الاتصال بينه وبين الآلام والجراح المنتشرة في كل مكان، هناك حيث الإنسان أقل كمالاً لكنه يجرؤ على أن يؤمن بشيء ما، لا أقصد نفسي بهذا يا باميللا، فأنا كائن مهيّضُ الجناح، بل أقصدك أنتِ وكل الآخرين. ها أنا ذا الآن أملك شعوراً بالأخوة أكثر مما كنت أعتقد عندما كنت إنساناً كاملاً، وذلك على الرغم من كل البتر والنقص الموجودين في هذا العالم، فإذا ما ذهبتِ معي يا باميللا، سوف تتعلمين معنى المعاناة من أجل الآخرين، كما ستتعلمين بأنك تعالجين نفسك عندما تعالجينهم.

قالت باميللا: هذا جيد جداً، ولكني واقعة في مصيبة مع ذلك الجزء الآخر منك، والذي أُغْرِم بي ولست أدري ما الذي سيفعله بي.

ترك خالي المعطف ينسدل، ذلك أن العاصفة كانت قد توقفت، وقال:

ـ حتى أنا مغرم بك يا باميللا.

قفزت باميللا خارج المغارة وهي تصرخ: كم هو جميل، هناك قوس قزح في السماء، وها أنا ذا أجد مغرماً آخر بي، حتى هذا الأخير مشطور، ولكنه ذو روح خيّرة.

كانا يسيران تحت الأغصان الندية، وعبر الدروب الموحلة، كان نصف فم الڤيسكونت قد رسم ابتسامة حلوة وناقصة.

قالت باميللا: إذاً ما الذي ستفعله الآن؟

ـ إني أقترح أن نذهب إلى ذويكِ ونعينهما قليلاً في عملهما.

قالت باميللا: قم بفعل ذلك إن كان يروق لك.

قال الڤيسكونت: إن هذا يروق لي بالفعل يا عزيزتي.

ـ أما أنا فسأبقى هنا.

قالت باميللا ذلك ثم توقفت مع عنزتها وبطتها.

ـ أن نقوم معاً بأفعال خيّرة، فإن هذا هو الطريق الوحيد لكي يغرم أحدنا بالآخر.

ـ يا للأسف، كنت أعتقد أن هناك طرقاً أخرى لذلك.

ـ إذاً وداعاً يا عزيزتي، سوف أحمل لك كعكة العسل.

ثم ابتعد غارقاً في الدروب وهو يتكئ على عكازه.

قالت باميللا وقد ظلت وحيدة مع البهيمتين:

ـ ماذا تقولين أيتها العنزة؟ ماذا تقولين أيتها البطة؟ هل كان يجب أن يحدث كل هذا لي؟.

8

منذ أن ساد الاعتقاد بأن النصف الآخر للفيسكونت قد عاد خيّراً بينما كان الآخر شريراً، تغيرت الحياة في ترّالبا.

في الصباح رافقتُ الدكتور تريلاوني في زياراته لعيادة بعض المرضى. ذلك أن الدكتور أخذ يستعيد نشاطه كطبيب رويداً رويداً، فقد تنبه إلى فداحة الآلام التي يعاني منها أناسنا. لقد خلف قحط السنين السالفة مرضاً لم يكن قد عُولج بعد، إنه نوع من تمزق الألياف في النسيج الذي يُكوِّن الجسم البشري.

كنا نذهب عبر الطرق الريفية، ونشاهد العلائم التي تركها خالي، أقصد خالي الطيب، والذي كان يعود المرضى باستمرار، وليس المرضى وحسب، بل حتى الفقراء والعجائز، وكل من هو بحاجة إلى مساعدة ونجدة. ففي بستان باشيشا، كان الرمان قد أثمر ثماراً ناضجة، وكانت قد وُضعت حول هذه الثمار مناديل وخرق، وقد أدركنا أن باشيشا، كانت تعاني من ألم في أسنانها، وأن خالي كان قد لفّ لها الرمان الناضج لكي لايتمزق وتسقط ثماره، ذلك أن المالكة لم تكن قادرة على الخروج من بيتها لجَنْيه، وكان هذا مؤشراً بالنسبة للدكتور تريلاوني نفسه وذلك لكي يزور هذه المريضة حاملاً كماشته معه.

أما قسُّ الكنيسة (تشكو) فقد كان لديه نبتة ركنها في الشرفة،

وكان يكابد الشعور بأنها لن تزهر أبداً. في ذلك الصباح وجدنا ثلاث دجاجات وقد رُبطت إلى السياج، كانت الدجاجات تأكل العلف، وتقذف روثها الأبيض داخل إناء النبتة، كان يبدو أن القسّ القائم على الكنيسة يعاني من مرض ما، وكان خالي هو الذي ربط الدجاجات لكي تقوم بتسميد النبتة، وقد هدف أيضاً إلى تنبيه الدكتور تريلاوني إلى هذه الحالة المستعجلة.

وعند سلالم العجوز جيرومينا وجدنا خيطاً من الحلزون يصعد نحو الباب، كانت حلزونات ضخمة من ذلك النوع الذي يأكل المطبوخ، كان خالي قد أحضرها كهدية للعجوز جيرمينا، لكنها كانت أيضاً إشارة موجهة إلى الدكتور تريلاوني ليقول له إن مرض القلب الذي تعاني منه العجوز قد استفحل وأنه يستحسن أن يدخل بهدوء لكي لايسبب لها الفزع.

لقد استخدم ميداردو الطيِّب كل علامات الاتصال تلك لكي ينبه الدكتور بطريقة مهذبة إلى فداحة الأخطار التي تحيق بهؤلاء المرضى. ولكن تريلاوني كان قد تنبه إلى العبرة مما يحدث، ذلك أنه استطاع الانتصار على انطوائيته، وبدأ بدخول بيوت مرضى لم يكن يعرف حتى من أي شيء يشكون.

بغتة شاع النداء في أرجاء الوادي «الغرامو، لقد حضر الغرامو»(*). كان ذلك هو النصف التعس لخالي الذي شوهد مراراً وهو يتجول في أرجاء الناحية، حيث كان الجميع يهرع للاختباء منه، وكان تريلاوني أولهم، وكنت أنا خلفه.

(*) غرامو تعني الشقي أو التعس. وهو شقي وتعس بسبب فداحة الشرور التي يقترفها بحق الآخرين. م.

مررنا من أمام بيت جيرومينا، وعلى السلالم وجدنا خيط الحلزونات الضخمة وقد سُحِقت فملأها الزبد وقد تشظت قواقعه.

ـ لقد سبق أن مرّ من هنا يا غامبه.

وعلى شرفة قس الدير «تشيكو» كانت الدجاجات قد ربطت إلى الحصيرة بعد أن كانت قادرة فيما مضى على نقر حبات البندورة.

ـ غامبه.

وفي بستان باشيشا كانت حبات الرمان بأسرها قد سقطت على الأرض، على حين ظلت الخرق التي كانت تحميها من السقوط بسبب نضجها المفرط، هذه الخرق ظلت خاوية.

ـ غامبه.

هكذا كنا نقضي حياتنا بين الرأفة والرعب. الطيِّب (كما سبق أن سُمِّيَ النصف الأيسر من خالي بمواجهة الغرامو الذي كان يمثل النصف الآخر) غدا قديساً يقصده المشوهون، والفقراء، والنساء الخائنات.

كان بإمكانه أن يستغل كل هذا ويغدو ڤيسكونتاً، لكنه كان مايزال مستمراً في سيرته هذه، يتجول منغمساً في معطفه الأسود، متكئاً على عكاز، بجوارب مرقعة بيضاء وزرقاء، يقوم بأعمال الخير لكل من يقصده من أجل هذا، ويقوم بأعمال شريرة بحق كل من يطرده بطريقة غير لائقة وسيئة. لم يترك نعجة دون أن يحطم ساقها، وهو يلقي بها في واد سحيق، ولا مدمن خمر لم يرفع السكين بوجهه، ولا زوجة لم تركض في الليل. ولم يكن ثمة من يراه وهو يظهر مثل مطر السماء، هكذا أسود وجاف، ذو ابتسامة حلوة. هكذا، يهرع لإسداء النصائح لكل من يطلبها منه، ويقترف العنف والآثام في الوقت نفسه. كانت باميللا تمضي معظم

وقتها في الغابة، وقد صنعت أرجوحة ممتدة بين شجرتي صنوبر، ثم أرجوحة صلدة من أجل العنزة، وثالثة لينة من أجل البطة، وكانت تمضي الساعات وهي تتأرجح برفقة البهيمتين. ولكن، وفي لحظة ما، وبينما هي فوق أرجوحتها، ظهر الطيِّب وقد ربط صرة إلى كتفه، كانت الصرة تحتوي على أغراض مهيأة من أجل الغسل والترقيع، وقد جمعها من الشحاذين والأيتام والمرضى الذين يعيشون وحيدين في هذا العالم، ثم طلب من باميللا أن تغسلها وهو يوحي لها بأنها تقوم بفعل الخير هي أيضاً. أما باميللا والتي اعتادت أن تقضي معظم وقتها في الغابة، فقد كانت تشعر بالسأم، لذا فقد انخرطت تغسل الثياب في الجدول وكان يساعدها هو في ذلك. ثم ما تلبث أن تنشر الغسيل عند أحد ذيول الأرجوحة، على حين جلس فوق صخرة وهو يقرأ كتاباً عن «القدس».

أما باميللا فلم تكن تأبه بمسألة القراءة تلك، لذا فقد اضطجعت على بطنها فوق العشب وقد انهمكت تفلّي نفسها من بعض الحشرات (لأنها لما كانت تمضي معظم وقتها في الغابة فقد تكاثر القمل وما شابه فيها) وهي تحك بوساطة بعض النباتات، تتثاءب، وتقذف بعض الحصى بقدميها الحافيتين وهي تحدق فيهما وقد أصبحتا ورديتي اللون وسمينتين بما فيه الكفاية. أما الطيِّب، ودون أن يرفع عينيه عن الكتاب، فقد بدأ يقرأ بصوت مرتفع علّه يلطف من فظاظة الصبية.

لكنها ما فتئت تكابد الشعور بالسأم دون أن تكترث بما يقرأ، وهي تحث العنزة على لحس نصف وجه الطيب، والبطة على القفز فوق الكتاب. قفز الطيِّب إلى الخلف، ثم رفع الكتاب، وأغلقه. ولكن بالضبط في هذه اللحظة برز الغرامو من بين الأشجار وهو يعدو بجواده وقد شهر منجلاً صلداً في وجه الطيِّب. أصابت نصلة المنجل الكتاب فشطرته إلى شطرين متساويين طولياً، بحيث ظل قسم من جلد الكتاب في يد الطيِّب

على حين تناثر القسم المشطور إلى آلاف القطع التي تطايرت في الهواء، ثم ما لبث الغرامو أن اختفى وهو يعدو. من المؤكد أنه كان يحاول إصابة نصف وجه الطيب، ولكن تصادف وجود البهيمتين هناك في اللحظة المناسبة. أما صفحات الكتاب ذات الحواف البيض فقد تطايرت في الهواء أو استقرت على أغصان الصنوبر، وفوق العشب، وفي ماء الجدول. أما باميللا التي كانت تراقب هذه الصفحات البيض وهي تتطاير، فقد صرخت:

ـ كم هو جميل هذا!

بعض الأوراق وصلت حتى الدرب حيث كنا نمر أنا والدكتور تريلاوني. تناول الدكتور إحداها وهي في الهواء، وقلّبها ذات اليمين وذات الشمال محاولاً فك طلاسمها، لكنه ما لبث أن خفض رأسه وهو يردد: ولكن لايمكن فهم أي شيء، تزت، تزت.

كان صيت الطيِّب قد وصل إلى الأوغونوتي، وغالباً ما كان يشاهد العجوز إيزيكيله فوق بسطة سلم الكرم الأصفر وهو يحدق في الدرب الجبلي المفروش بالحصى والذي كان يصعد من أسفل الوادي.

قال له أحد أبنائه: إني أراك تحدق في الوادي يا أبي، كأني بك تنتظر قدوم أحد ما.

رد إيزيكليه: إني أنتظر الرجل، أنتظر الرجل الحقيقي بفارغ الصبر، وأنتظر الرجل الزائف وأنا ممتلئ بالخوف.

ـ إنه الأعرج وصاحب الساق الأخرى، هل هما من تنتظر؟

ـ هل تناهى إلى مسمعك ما يقال عنهما؟

ـ إن الحديث لايجري إلا عنهما في الوادي عن الأبتر ـ الأعسر، هل تعتقد بأنه سوف يصل إلينا هنا في الأعلى؟

ـ إذا كانت أرضنا هي أرض أناس يعيشون خيّرين، وهو رجل خيّر، ليس ثمة ما يدعو للاعتقاد بأنه لن يأتي.

ـ إن الدرب الجبلي عَصِيّ على من يمشي على عكاز؟

ـ لقد سبق أن عثر على جواد يوصله إلى هنا.

كان الأوغونوتي الآخرون قد برزوا من بين الأشجار وهم يستمعون إلى حديث إيزيكيله، كانوا قد غرقوا في الصمت وهم يستمعون إليه يُلَمِّحُ إلى الڤيسكونت. قالوا: لقد سبق أن قلت لنا يا أبانا إيزيكيله، عندما زارنا النحيل، وعندما أحرقت العاصفة نصف شجرة البلوط بأنه من الممكن أن يمر بنا يوماً ما عابر سبيل أفضل.

كان إيزيكيله واجماً يمشط براحته لحيته المتهدلة على صدره.

ـ أبانا، هل من تتحدث عنه أعرج أيضاً، هل هو مناقض للآخر، سواء في الجسد أم في الروح، مملوء بالرأفة كما كان الآخر مملوءاً بالفظاظة، هل هو ذلك الزائر الذي سبق لك أن أشرت إليه بكلماتك تلك؟

قال إيزيكليه: إن أي عابر سبيل، ومن أي طريق، يمكن أن يكون هو، حتى هذا يمكن أن يكون.

قال الأوغونوتي: فلنأمل كلنا بأن يكون هو.

اقتربت زوجة إيزيكيله وهي تثبت نظراتها أمامها، وهي تدفع عربة مملوءة بأعواد وأغصان الكرمة، قالت:

ـ لقد كنا على الدوام نأمل أن تحدث أشياء طيبة، ولكن حتى لو صادف أن جاء من يعرج إلى هضابنا تلك، فلن يكون سوى مشوه حرب، سواء كان طيباً أم شريراً، فإننا سنواصل في كل يوم حياتنا حسب معتقداتنا العادلة، وسنواصل حرث حقولنا.

ردّ الأوغونوتي: هذا مؤكد، وهل قلنا شيئاً يخالف هذا؟

قالت المرأة: حسناً، إذا كنا جميعاً متفقين حول هذا، فلنعد إلى الفؤوس والمعاول.

قال إيزيكيله وهو يكاد ينفجر غيظاً: وباء وجدب، ومن طلب منكِ ترك فأسك.

عندئذٍ بدأ الأوغونوتي ينسحبون من بين صفوف الأشجار، بغيةَ الوصول إلى معداتهم التي رُكِنت في الأخدود، ولكن في تلك اللحظة، صعد إزاو فوق شجرة التين وهو يرى والده مغتاظاً، وانهمك في قضم الثمار التي نضج بعضها، ثم ما لبث أن صرخ:

ـ ولكن، هناك في الأسفل من عساه يكون ذلك القادم وهو يمتطي بغلاً؟

بالفعل فقد كان ثمة بغل يصعد نحو الأعلى، وعلى ظهره نصف رجل، كان هذا هو الطيب، وقد اشترى تلك البهيمة المعذبة العجوز بينما كانوا يهمون بإغراقها في الماء، لأنها لم تعد تصلح حتى للذبح. قال الطيِّب في سره: على أية حال، إن وزني يعادل نصف رجل، وهذا البغل العجوز يمكنه أن يحملني، وهكذا عندما أعثر على راحلة حيث يمكنني أن أمتطيها، عندئذٍ أستطيع الذهاب بعيداً من أجل القيام بأفعال خيّرة.

وهكذا، وكأول رحلة له، جاء لزيارة الأوغونوتي.

استقبله الأوغونوتي وهم محتشدون، مستقيمون وهم يرتلون نشيداً مقدساً، ثم ما لبث العجوز أن اتجه صوبه وحياه كأخ له؛ أما الطيِّب وقد ترجل من على ظهر البغل، فقد أخذ يحيي كل من يسلم عليه بطريقة احتفالية؛ قبّل يد زوجة إيزيكيله التي كانت تلوح على قسماتها سمات القسوة والاكفهرار، وهكذا بدأ يستعلم عن صحة الجميع، مدّ يده يداعب

رأس إزاو الخشن الذي تراجع إلى الخلف، كما أبدى اهتماماً كبيراً بكل ما يمكن أن يسبب الضيق لأي منهم، ثم استمع إلى قصة الاضطهاد الذي تعرضوا له، وهم يحاولون إثارة مشاعر العطف لديه، ويلقون الاتهامات على مضطهديهم. كانوا يحدثونه بالطبع دون أن يُركّزوا على الخلافات المذهبية والدينية، وإنما كسلسلة من المآسي الناتجة عن الشر الإنساني العام، ولم يتوقف ميداردو عند مسألة أن عملية الاضطهاد التي تعرضوا لها جاءت من قبل الكنيسة التي ينتمي إليها هو شخصياً. كما أن الأوغونوتي لم يصرحوا بأشياء ذات طابع ديني، ربما لخشيتهم من قول أشياء مغلوطة حتى من الناحية الكهنوتية، وهكذا تحولت أحاديثهم إلى مجرد أحاديث غامضة ومثيرة للعطف بينما كانوا يدينون أي عنف وأي إفراط. كان الجميع متفقين، لكنَّ بروداً ما ساد جمعهم. ثم قام الطيِّب بزيارة الحقول، وهو يبدي أسفه لقلة محصول القمح لهذا العام في مقاطعته. سألهم: بكم ستبيعونه؟

قال إيزيكيله: ثلاث سكودات(*) لكل ليبرة(**).

ـ ثلاث سكودات لكل ليبرة؟ ولكن أهل ترّالبا سيموتون جوعاً أيها الأصدقاء، لن يقدروا على شراء حفنة قمح.

ربما لم تكونوا على علم بأن البَرَدَ قد أتلف محصولهم من القمح هناك في الوادي، وأنكم أنتم الوحيدون الذين يمكنهم إنقاذ الأهالي من الموت جوعاً.

قال إيزيكيله: نحن نعرف هذا، ولهذا السبب بالضبط سنجني الكثير من الأرباح.

(*) سكودا: وحدة نقدية قديمة.

(**) ليبرة: وزن كان يُستخدم في تلك الأيام.

ـ ولكن فكِّروا برحمة هؤلاء الفقراء، خفِّضوا سعر قمحكم، ثم فكّروا بمقدار الخير الذي ستجنونه من جراء ذلك. كان العجوز إيزيكيله يقف قبالة الطيب، وقد ضمّ ساعديه على حين وقف الأوغونوتي مقلديه. قال: أن تفعل الخير؛ لايعني أن تخفض أسعارنا.

توجه الطيِّب صوب الحقول، وهناك شاهد بعض العجائز وهم يحرثون الأرض بفؤوسهم. قال محدثاً عجوزاً ذا لحية طويلة: يبدو لون وجهك سيئاً، ربما كنت مريضاً بعض الشيء.

ـ كيف يمكن أن يكون المرء الذي يحرث بالفأس عشر ساعات، لسنين طوال، وقد ملأ معدته بشوربة اللفت.

قال إيزيكيله: إنه ابن عمي، وهو عامل بارع.

ـ ولكن يجب أن تستريح، وتتغذى جيداً، فأنت عجوز.

وبينما كان الطيِّب يقول هذا، كان إيزيكيله يطرد العجوز بأسلوب فظ. قال دون أن يكرر كلماته نفسها: نحن هنا نحصل على الخبز بطريقة قاسية جداً أيها الأخ.

في بداية الأمر، وعندما ترجل الطيِّب عن ظهر البغل، كان يرغب بربطه بنفسه، وقد طلب كيساً من العلف لكي يعوض البغل عن عناء الصعود الذي قام به، أما إيزيكيله وزوجته فقد نظر كل منهما إلى الآخر. ذلك أنه، وحسبما يعتقدان فإنه يكفي تقديم بعض الأعشاب البرية إلى البغل. ولكن هذا حدث بالضبط بينما كانا يستقبلان الضيف عند وصوله، لذا فقد وجدا نفسيهما مضطرين لتقديم التبن والعلف إلى البغل. أما الآن وعندما فكر بالأمر، فإن العجوز إيزيكيله لم يكن مقتنعاً بأن كمية العلف الضئيلة يمكن أن تسدّ رمق البغل، لذا ودون أن يشعر الضيف بأي

شيء، نادى إزاو وقال له: إزاو، إذهب إلى البغل، ارفع عنه العلف وقدم له شيئاً آخر.

ـ مطبوخ الربو مثلاً؟

ـ سيقان الذرة الصفراء، بعض الحمص، أعطه ما ترغب به.

ذهب إزاو، وحمل كيس العلف وهو يتلقى رفسة من البغل جعلته يعرج بعض الوقت، ثم خبأ العلف، ذلك أنه كان يريد بيعه لحسابه، لذا قال بأن البغل قد استهلك العلف كله.

دوّى قصف الرعد، كان الطيِّب مايزال وسط الحقول برفقة الأوغونوتيّ، وقد وقف حائراً لايدري ما يقول.

قالت زوجة إيزيكيله:

ـ مازال يتوجب علينا أن نعمل لساعة أخرى أيها الضيف.

ـ إذن سأذهب كي أستريح.

ـ حظاً سعيداً أيها الضيف.

عندما عاد الطيِّب ميداردو إلى بغله، قالت المرأة بينما كان ينسحب:

ـ مشوه حرب مسكين، هناك الكثير منه في هذه الأنحاء، يا للمساكين.

ردد الجميع: أجل كم هم مساكين، هذا حق.

ـ وباء وجدب.

هكذا كان يصرخ العجوز إيزيكيله بينما كان يطوف في الحقول، وهو يهز قبضته بسبب تقصير الفلاحين في أداء عملهم. وكان يصرخ في وجه القحط أيضاً: وباء وجدب.

9

غالباً ما كنت أذهب إلى مخزن بيتروكيودو لشراء الآلات والأجهزة التي يقوم المعلم العبقري بتركيبها وصناعتها. إنه نجار يعيش في كآبة وتبكيت ضمير دائمين. ولكن من اللحظة التي قام فيها الطيِّب بزيارته ليلاً، حيث كان يؤنبه دائماً على النهاية المحزنة التي آلت إليها اختراعاته، ما انفك يحثه على صنع أدوات تخدم فعل الخير بدلاً من أن يلعن حظه.

تساءل بيتروكيودو: ولكننا يجب أن نصنع هذه الآلات على أية حال.

ـ سوف أوضح لك جلية الأمر الآن، يمكنك مثلاً...

وانخرط الطيِّب يصف له الآلات التي كلفه بصنعها، ولو أنه كان ڤيسكونتاً في محل نصفه الآخر، لتمكن من أن يشرح له الأمر بوساطة بعض الرسوم التوضيحية.

وقد تَوَضَّح لبيتروكيودو أن لمس هذه الآلة الموسيقية الضخمة لابد أن يؤدي إلى شيوع موسيقى عذبة. وهكذا فإنه انخرط يبحث عن الأخشاب الملائمة لصنع الأوتار، وقد شعر بأن حواره مع الطيِّب قد جعله يتخبط في أفكارٍ مضطربة.

لقد فَهِمَ أن الطيِّب يريد أن يمرّ الطحين بدلاً من الهواء. وفي المحصلة النهائية يجب أن يكون هذه آلة موسيقية وطاحونة في الوقت نفسه؛ طاحونة تطحن الدقيق لحساب الفقراء؛ بل لعله كان فرناً لخَبْز الفطائر. كان الطيِّب ما ينفك يشرح له أفكاره، ثم يقوم برسم المخططات على أوراق وأوراق، ولم يكن بوسع بيتروكيودو أن يهملها، لأن هذه الآلة الموسيقية والطاحونة والفرن يجب أن تكون لها القدرة على رفع المياه لكي تجنب كبار السن مشاقَّ ذلك، وأن تكون لها عجلات تمكنها من أن تجوب القرى والبلدات، وأن تكون لها القدرة على الدوران في الهواء والتقاط الفراشات التي تحوم هنا وهناك.

وقد بدأ النجار يشكك في قدرة الإنسان على اختراع آلة من هذا النوع، بينما توجد آلات قادرة على العمل بدقة وعملية كما هي المشانق وأدوات التعذيب.

وبالفعل، فما أن قام الغرامو بشرح فكرة اختراع آلة جديدة لبيتروكيودو، حتى انكب هذا الأخير على العمل، وقد بدت التفاصيل هامة لدرجة أنه لايمكن الاستغناء عن أي جزء من هذه الآلة، وهكذا انتهى العمل في هذه الآلة بنجاح كبير.

كان الحرفي يعبر عن تبرمه وضيقه قائلاً:

- يبدو لي أن الشر مزروع في داخلي لدرجة تراني بارعاً جداً في صناعة آلات للتعذيب.

لكنه على أية حال كان مايزال مستمراً في اختراع آلات تعذيب جديدة بمنتهى البراعة والمهارة.

وفي أحد الأيام شاهدته يصنع آلة تعذيب غريبة الشكل، حيث كان ثمة مشنقة بيضاء تؤطر جداراً أسود من الخشب، وكان ثمة ذيل أبيض هو

الآخر يمر عبر ثقبين في الجدار، بالضبط في المكان الذي يوجد به حبل المشنقة.

سألته: ماهي هذه الآلة أيها المعلم؟

قال: إنها مشنقة تعدم البروفيل.

ـ ومن أجل من تصنعها.

ـ من أجل رجل يحكم على الآخرين بالموت، ويُحكم عليه به أيضاً، إنه ذو نصف رأس يحكم على نفسه بالعقاب، أما النصف الآخر فإنه يدخل في الرباط الجاري، ومن ثم تصعد آخر أنفاسه، أما أنا فلدي الرغبة في أن يصيب ذلك النصفين.

وقد أدركت أن الغرامو، وقد أحس بزيادة شعبية نصفه الطيِّب الآخر، فإنه يرغب الآن في القضاء عليه.

وبالفعل فقد نادى على الحرس وقال لهم:

ـ ثمة منحرف نذل ما انفكَّ منذ أمد طويل يتجول في أرضنا وهو يحرض الناس، أريدكم أن تعتقلوه غداً، أو أن تحضروه لكي يُعدم هنا.

ـ سنفعل ذلك يا سيدي.

قال الحرس ذلك، ثم انصرفوا، ولما كان الغرامو ذا عين واحدة فإنه لم يلحظ الحرس وهم يتبادلون النظرات فيما بينهم عندما كان يقول لهم ذلك.

يجب التأكيد على أن ثمة مؤامرة تحاك في القصر، وأن الحرس أنفسهم مشتركون في إعدادها، كان الأمر متعلقاً بعملية أسر نصف الڤيسكونت الحالي، وإحضاره إلى القصر، ومن ثم تسليمه للنصف الآخر الذي لم يكن على علم بالأمر، وأن يتم ذلك في الليل.

وفي الجناح الذي ينام فيه، استيقظ فوجد نفسه محاطاً بالحرس.

قال رئيس الحرس:

ـ لاتخف، لقد أرسلنا الڤيسكونت لاعتقالك وإحضارك هنا، ولكننا تعبنا من شروره التي ما انفك يقترفها لذا فقد قررنا أن نعتقله هو وأن نُنصِّبك في مكانه.

ـ ما هذا الذي أسمعه؟ هل فعلتم ذلك؟ هل قمتم باغتيال الڤيسكونت؟

ـ لا، ولكننا سنقوم بذلك دون شك في الصباح.

ـ آه، لنشكر السماء، لا، لاتسفكوا مزيداً من الدماء، لقد سُفك حتى الآن الكثير منها، أي خير يمكننا أن نجني من تنصيب سيِّد يولد من الجريمة؟

ـ حسناً يمكننا أن نعتقله، ونحبسه في القلعة، وسنكون مطمئنين وراضين.

ـ لاترفعوا أيديكم ضده أو ضد أي شخص آخر، إني أتوسل إليكم، حتى أنا سبب لِيَ الڤيسكونت الآلام الشنيعة بسطوته تلك، وحتى لو لم يكن ثمة علاج آخر يمكنه أن يعطي المثل الصالح، فإني أرجو منكم أن تكونوا مهذبين وفاضلين:

ـ إذاً يجب أن نغتالك يا سيدي.

ـ لا، لقد قلت لكم بأنه لايتوجب عليكم الاغتيال أبداً.

ـ وكيف يمكن أن يحدث هذا؟ فإن لم يكن من المتوجب علينا أن نقضي على الڤيسكونت، ستجب علينا طاعته إذن.

ـ خذوا هذا الإبريق، إنه يحوي بعض الأوقيات من البلسم الذي عالجني به كاهنا بوهيميا، وهي آخر ما تبقى لي، وقد ظل ثميناً بالنسبة لي حتى الآن، ومع مرور الوقت، أخذت تؤذيني تلك العلائم التي لانهاية لها، إحملوه إلى الفيسكونت وقولوا له: إنه هدية من شخص، يعرف ما الذي يمكن أن يعنيه انسداد أوردة الدم في جسم إنسان.

توجه الحرس إلى الفيسكونت حاملين معهم الإبريق، فحكم الفيسكونت عليهم بالشنق، ومن أجل إنقاذ الحرس قرر المتآمرون الآخرون التمرد، ولما كانوا قليلي الخبرة، فقد وُجِدوا غارقين في دمائهم مما حدا بالطيّب إلى زيارة قبورهم حاملاً إليهم الزهور، ومن ثم قام بتعزية الأرامل والأيتام. كانت العجوز سيباستيانا هي الوحيدة التي لم تحرك فيها طيبة الطيّب أية مشاعر، ذلك أنها تابعت حياتها بشكلها المعتاد. أما الطيّب فقد دأب على الوقوف أمام كوخ المربية، ثم قام بزيارتها مرات عديدة. كان لطيفاً ومبادراً، لكنها مافتئت تؤنبه وتوبخه، وربما كان هذا بسبب قدرها كبديلة للأم، ومن الجائز أن مدعاة ذلك هو رغبة العجوز في إخفاء أفكارها، لأنها لم تأخذ مسألة شطر ميداردو إلى نصفين على محمل الجد؛ ولذلك دأبت على توبيخ أحد الشطرين بسبب الأعمال الشريرة التي كان يقترفها الشطر الآخر، كما دأبت على إسداء النصائح إلى أحد الشطرين في حين كانت تعني الشطر الآخر، وهكذا.... الخ.

ـ ولماذا قطعت رأس ديك السيدة بيجين، يا للمسكينة، لم تكن تملك غيره، هكذا أنت، وقد كبر سنك وأنت تقترف مثل هذه الأفعال الشنيعة.

ـ ولكن لماذا تقولين لي هذا أيتها المربية؟ إنك تعلمين بأني لست الفاعل.

ـ أوه، هذا جميل، هيا قل لنا من عساه يكون الفاعل!

ـ أنا، ولكن...

ـ آه، هل رأيت.

ـ ولكن لست أنا هنا...

ـ إيه هل تريد أن تخدعني اعتقاداً منك بأني طاعنة في السن؟ أما أنا فما أكاد أسمع بعملٍ خبيثٍ حتى أعي أنه من صنع يديك، وأقول في نفسي: أقسم بأنه الأعرج ميداردو.

ـ ولكنك تخطئين باستمرار...

ـ أخطئ! أنتم الشباب تتهمون كبار السن دوماً بالخطأ، ولكن ماذا عنكم أنتم؟ هل أهديت عكازك إلى العجوز إزيدرو..

ـ أجل، بالنسبة لهذا فقد كنت أنا الفاعل.

ـ وهل تتباهى بذلك؟ إنه يخدمه فقط من أجل ضرب زوجته. ياللمسكينة.

ـ لقد قال لي إنها تساعده على المشي، خاصة وأنه يعاني من آلام في المفاصل.

ـ إنه مخادع، وقد سارعت أنت إلى إهدائه العكاز. لقد كسره وهو يضرب زوجته على ظهرها، أما أنت فإنك تدور هنا وهناك مستنداً إلى غصن لكي يسندك. إنك فاقد الرشد، هكذا أنت، وكنت دوماً هكذا، ثم ماذا عن ثور برناردو الذي سقيته الكرابا فَسَكِرَ؟

ـ لم أكن أنا من....

ـ إيه، أجل، لم تكن أنت من قام بذلك، حتى لو قال الجميع هذا، فأنا مقتنعة بأن من فعل هذا هو الڤيسكونت.

لم تكن زيارات الطيّب إلى براتوفونغو بسبب شدة التصاقه بالمربية وحسب، بل إنه كان يهرع دوماً لنجدة المجذومين المساكين. كان يتجول في أنحاء البلدة وهو متحصن من العدوى بسبب العلاج السري الذي تلقاه من الكاهنين، وكان يستعلم بشكل دقيق عن حاجات المجذومين، ولم يكن يهدأ له بال حتى يحقق لهم كل ما يصبون إليه، وبكافة الطرق والوسائل، وقد دأب على أن يروح ويجيء، ممتطياً بغله، من براتوفونغو إلى منزل الدكتور تريلاوني وهو يطلب منه النصائح الطبية، ويحمل معه الأدوية. لم يكن الدكتور قد امتلك الشجاعة بعد للاقتراب من المجذومين، ولكن يبدو أنه بدأ بفضل الطيّب يهتم بهم. لكن نية خالي ذهبت أبعد من ذلك، ذلك أنه لم يكن يهتم بحالتهم الجسمانية وحسب، بل وبحالتهم الروحية. لذا فإنه دأب على إسداء النصائح الأخلاقية إليهم، بل وراح يدس أنفه فيما يتعلق بأشيائهم الشخصية، يفصح لهم عما في دخيلته، ويلقي على مسامعهم مواعظه، ولم يكن بمستطاع المجذومين المعاناة من جراء ذلك. الآن انتهت الأيام السعيدة لبراتوفونغو بسبب هذا النحيف الذي يمشي على ساق واحدة، وقد التحف الثياب السوداء، احتفاليٌّ المظهر، يدّعي الحكمة، لم يعد أي منهم قادراً على أن يقوم بما يثير اللذة في نفسه دون أن يتجنب الإدانة والمحاكمة في وسط الساحة. حتى الموسيقى، وقد ثارت ثائرته لسماعها، فإنه ما انفك يوبخهم ويؤنبهم على أنها شيء تافه ولاقيمة له، ولاتوحي بأي إحساس جميل، بل إنها تثير السأم. حتى أدواتهم الموسيقية باتت وقد غطتها الأتربة، حتى النساء المجذومات فقدن قدرتهن على الرقص، وغدون وحيدات في مواجهة مرضهن، وأخذن يمضين الأمسيات وهن ينتحبن.

ثم، بدأ يقال في براتوفونغو:

ـ من الشطرين، يبدو الشطر الطيّب هو الأسوأ.

لكن بهجة الطيِّب لم تفقد ضياءها في براتوفونغو وحسب، بل قال الجميع:

ـ من حسن الحظ أن قذيفة المدفع قد شطرته إلى شطرين وحسب، ولو أنها قسمته إلى ثلاثة أقسام فمن يدري ما كان من الممكن أن يحدث لنا.

أما الأوغونوتي فقد انخرطوا يقومون بدوريات الحراسة المتناوبة إتقاءً لشر الطيِّب أيضاً، الذي بدا وكأنه فَقَدَ كل احترام بالنسبة لهم، وقد دأبوا على مراقبة أكياس القمح في مخازنهم، ومن ثم رفعوا سعره نكاية به، وقد قال قائل بأنه يسعى إلى ضرب سمعتهم في السوق التجارية.

هكذا كنا نمضي الأيام في ترّالبا، وقد تبدلت أحاسيسنا، وغدت باهتةَ الألوانِ، وصرنا نشعر بالضياع بين الشر والفضيلة اللذين أصبحا لا إنسانيين بشكل متساوٍ.

10

ثمة ليلة مقمرة؛ في تلك الليلة، تبدو الأفكار المتناقضة للأرواح الشريرة وقد التفت على نفسها كأنها أعشاش ثعابين، وحيث الأرواح الطيبة تبدو وهي تتفتح كأنها زنابقُ رفضٍ وتفانٍ. وهكذا بين منحنيات ترّالبا، كان شطري ميداردو يطوفان وقد هزتهما حالة تمرد ذاتي. ذلك أنه ما أن اتخذ كل منهما القرار نفسه، فإنهما بدأا بتنفيذه صباح اليوم التالي.

وبينما كانت أم باميللا تسعى لإحضار الماء، سقطت وغاصت في قلب الجب، لكنها ظلت متعلقة بذيلٍ ما وهي تصرخ «النجدة»، وفي تلك اللحظة شاهدت حول البئر هيئة الغرامو بعكس اتجاه الشمس وهو يقول لها:

ـ كنت أريد أن أقول لك فقط ـ هكذا كما أعتقد أنا ـ إننا نشاهد بصحبة ابنتك باميللا نذلاً مشطوراً، يجب عليك أن ترغميه على الزواج منها، الآن وقد اتفق معها. وعليه، إذا ما رغب في أن يصبح إنساناً لطيفاً، أن يصلح الأمور، هذا ما أعتقده أنا، ولاتطلبي مني المزيد من الإيضاح.

كان والد باميللا يحمل كيساً من الزيتون وهو متوجه صوب معصرة الزيتون، لكن الكيس كان مثقوباً، وكان يُشَاهد خلفه خيط من الزيتون على طول الدرب، وعندما بدأ يخف وزن الكيس أنزله الأب عن كتفه.

وتنبه إلى أنه يكاد يكون فارغاً، لكنه لاحظ أن الطيّب كان يمشي خلفه، وكان يلمّ له حبّات الزيتون الواحدة تلو الأخرى ويضعها في معطفه.

ـ كنت أتبعك وأنا راغب في التحدث إليك، ثم مالبثت أن حظيت بشرف إنقاذ زيتونك. هذا ما يدور في قلبي، ذلك أنني ومنذ أمد طويل كنت أعتقد أن تعاسة الآخرين هي من صلب اهتماماتي. إني أغادر ترّالبا، ولكن فقط إن كانت مغادرتي تجلب السلام إلى شخصين، ابنتك التي ترقد الآن في مغارة بينما ينتظرها أحد النبلاء، وإلى جزئي الأيمن التعس الذي يجب أن لايظل وحيداً، باميللا والڤيسكونت يجب أن يجمعهما رباط زوجي.

باميللا التي كانت تُدرّب سنجاباً صادفت أمها التي تظاهرت أنها تذهب لالتقاط ثمر الصنوبر. قالت الأم: باميللا، لقد جاء اليوم الذي يجب أن تتزوجي فيه ذلك المتشرد الذي يقال له الطيّب.

قالت باميللا: من أين جاءتك هذه الفكرة؟

ـ لقد اتفق معك، وعليه أن يتزوجك، قولي له هذا وهو لن يمانع إذا ما رغب في إظهار لطفه.

ـ ولكن كيف تسربت إلى رأسكِ هذه الفكرة؟

ـ اخرسي، لو علمتِ من أوحى إليّ بهذا لما انهلت علي بمزيد من الأسئلة. إنه الغرامو شخصياً هو من قال لي هذا، إنه ڤيسكونتنا.

قالت باميللا وقد تركت السنجاب يسقط أرضاً: يا للهول.

ثم أردفت: من يدري أي مصيبة هو في سبيله إلى القيام بها.

وبعد قليل، وبينما كانت تحاول أن تُصفّر في ورقة نبات تحملها بين

يديها، التقت باميلا والدها الذي تظاهر بأنه يذهب لإحضار الحطب، قال الأب: لقد حانت اللحظة التي يجب فيها أن تتزوجي الڤيسكونت غرامو، سوف تتزوجينه في الكنيسة.

ـ هل هذه فكرتك، أم أن هناك من أوحى إليك بها؟

ـ ألا يعجبكِ أن تكوني ڤيسكونتسّة؟

ـ أجب على سؤالي.

ـ حسناً، تخيلي أن من قال لي هذا هو الكائن الأكثر طيبة في العالم، إنه ذلك المتشرد الذي ندعوه بالطيب.

ـ آه، لم يعد لديه أي جديد يفكر به، سوف يرى ما الذي سأفعله أنا.

وبينما كان الغرامو يمتطي صهوة جواده النحيل، دهمته الأفكار التالية: لو تزوجت باميلا من الطيب، فإنها عملياً وأمام القانون تكون قد تزوجت من ميداردو دي ترّالبا، أي أنها سوف تكون زوجته.. وهكذا بينما هو واثق من حقه هذا، فإن الغرامو سوف يتمكن من أن يسحبها من بين يدي أي منافس بينما هي مستسلمة وأقل مقاومة.

لكنه التقى بباميللا، فقالت له: لقد قررت أيها الڤيسكونت أن أتزوجك إن كنت موافقاً على ذلك؟

قال الڤيسكونت: أنتِ ومن؟!

ـ أنا وأنت، سوف أذهب إلى القصر وأغدو ڤيسكونتسه.

لم يكن الغرامو ينتظر هذا أبداً، لذا فقد فكر «إذن فمن غير المجدي أن ألجأ إلى الأحابيل من أجل دفعها للزواج من نصفي الآخر، سوف أتزوجها أنا، وسينتهي كل شيء».

وهكذا فقد أجابها: إني جاهز.

قالت باميللا: إذن فلنتفق مع أبي.

بعد ذلك، التقت باميللا بالطيب وهو يمتطي بغله، فقالت له: لقد أدركت يا ميداردو بأني بحق مغرمة بك، وإذا ما أردت إسعادي فيجب عليك أن تطلب يدي للزواج.

فَغَرَ المسكين فاهُ وفكر في سره «إذا كانت سعيدة بالزواج مني، فلن أقدر أن أزوجها من أي شخص آخر». قال: سوف أهرع يا عزيزتي لأحضِّر كل شيء من أجل الاحتفال بزواجنا.

قالت باميللا: إذن فلنتفق مع أمي، عدني بذلك.

انقلبت كل ترّالبا رأساً على عقب عند سماعهم نبأ زواج باميللا، البعض قال إنها تزوجت هذا، والبعض الآخر قال إنها تزوجت ذاك. لكن والدي باميللا كان يبدو أنهما يتقصدان فعل هذا من أجل إرباك أفكار الناس.

بالتأكيد، ففي القصر كان الجميع منشغلاً بتعليق الزينات والمظاهر الاحتفالية وكأنهم ينتظرون حدثاً هاماً. كان الفيسكونت قد خاط ثوباً من المخمل الأسود ذا ربطة عند اليد وأخرى على سرواله. ولكن حتى الطيِّب كان يستعد، فقد مشط بغله المسكين، كما قام بترقيع ثوبه عند المرفق والركبة. على كلٍّ، وفي أية حال، كانوا قد أضاؤوا الشموع في الكنيسة.

قالت باميلا إنها لن تترك الغابة حتى تحين اللحظة الضرورية، لأنها مهتمة بجهاز العرس ولوازمه. فقد خاطت ثوباً أبيض، ذا خمار وأذيال طويلة جداً، كما هيأت تاجاً ونطاقاً مزيناً بسنبلة من الخزامى، بحيث أن ذيل الثوب كان يتبعها ببضعة أمتار، كما خاطت ثياب عروس من أجل

عنزتها، وثياب عرس أخرى من أجل البطة، ثم هرعت تركض نحو الغابة تتبعها البهيمتان، وقد حرصت على أن لاتُمزِّق أذيالُ الثوب بأغصان الشجر، ولا أن يعلق الخمار بإبر الصنوبر، أو بقايا الكستناء التي لم تتوقف عن وخزها عبر الدروب.

ولكنها كانت مستغرقة التفكير في الليلة التي تسبق العرس، بل وخائفة بعض الشيء. كانت جالسة فوق قمة إحدى الهضاب العارية من الشجر، وقد التفّت أذيال الثوب عند قدميها، أما تاج الخزامى فقد كان مزوّراً، وقد كانت تسند رأسها بيدها وتحدق في الغابات متفحصة.

كنت برفقتها كل الوقت، لأني كنت أقوم بدور الوصيف، وكان يرافقني إزاو، إلا أن أحداً لم يكن يراه.

سألتها: مَنْ ستتزوجين يا باميللا؟

قالت: لست أدري، لا أعرف بالضبط ما الذي سيحدث، هل ستسير الأمور بشكل جيد أم سيء؟

ومن الغابات تصاعد صراخ حنجرة، ثم تصاعد صوت زفير، إنهما المشطوران وقد اغتنما فرصة انشغال الحرس فأخذا يجوبان منعطفات ومنحدرات الغابة، وقد انغمسا في معطفيهما الأسودين. أحدهما كان يمتطي جواده النحيل، والآخر يعتلي ظهر بغله المسلوخ، يزأران ويزفران، وقد أخذا بخيالاتهما المثيرة للضجر. كان الجواد يصعد قافزاً، على حين يتسلق البغل ببطء، لكنهما لم يكونا يلتقيان أبداً.

حتى إذا جاء الشفق انحدر الجواد نحو الهاوية مدفوعاً بخببه السريع، ولكن لم يكن بمستطاع الغرامو أن يصل في الوقت المناسب، على حين كان البغل يسير بتؤدة وثبات. لذا فقد وصل إلى الكنيسة في الوقت

المناسب، بالضبط عند وصول العروس وهي تجر أذيال ثوبها التي كنا نحملها أنا وإزاو.

خاب أمل الجميع عندما لاحظوا أنه لم يحضر سوى الطيِّب مستنداً على عكازه، وتمَّ الزواج بشكل طبيعي. تحدث العروسان وتبادلا الخاتمين، وكان القسيس يقول لهما: ميداردو دي ترّالبا وباميللا ماركولفي، إنني أتوجكما زوجين.

ولكن وفي تلك اللحظة، ومن أعماق الرواق، ظهر الڤيسكونت مستنداً إلى عكازه، مرتدياً ثوبه المخملي الجديد، وقد بُلِّلَ بالماء والطين وهو يقول:

ـ أنا ميداردو دي ترّالبا، وباميللا هذه هي زوجتي.

أما الطيِّب الذي كان ثابتاً قدَّامه فقد صرخ: لا، إن الميداردو الذي تزوج باميللا هو أنا.

ألقى الغرامو عكازه، ووضع يده على قبضة سيفه، ولم يكن أمام الطيِّب سوى أن يقوم بالفعل نفسه.

ـ استعد.

ضرب الغرامو بسيفه نحو العمق، فلم يكن بمستطاع الطيِّب إلا أن يتخذ وضعية المدافع، ولكن الاثنين كانا يدوران ويسقطان أرضاً.

وقد اقتنع الإثنان أن من المستحيل المبارزة وكل منهما يقوم على ساق واحدة. كان كلٌّ منهما بحاجة إلى ساقين كيما يحافظ على توازنه، لذا فقد أُجِّلت المبارزة لِيُهَيِّء كل منهما نفسه بشكل أفضل. قالت باميللا: هل تعرفون ما الذي سأفعله الآن؟ سوف أعود إلى الغابة.

ثم هرعت تركض خارج الكنيسة. ولم يعد هناك وصيفان لحمل

أذيال الثوب، وعند الجسر التقت بالعنزة والبطة اللتين كانتا تنتظرانها، سارتا إلى جانبها وهما تعدوان.

كان موعد المبارزة قد حُدِّد في اليوم التالي، عند الشفق، في براتوديللا موناكه. وكان المعلم بيترو كيودو قد اخترع ساقاً على هيئة فرجار، وقد ثبتت على نطاق المشطورين بحيث تسمح لهما بالبقاء مستقيمين، كما تساعدهما على الحركة في الوقت نفسه، وتتيح لهما الانحناء إلى الأمام وإلى الخلف، في حين تظل رأس الساق مثبتة في الأرض لكي يظلا واقفين. كان المجذوم يقوم بدور الحَكَم وهو ما كان يفعله عندما كان سليماً معافى. كان والدا باميللا هما عرّابي الغرامو، على حين كان عرّابا الطيّب رجلين من الأوغونوتي، أما الدكتور تريلاوني فقد كان هو المكلف بالمهام الإسعافية، وقد حضر حاملاً معه لفافة من الضماد، وزجاجة مملوءة بالبلسم الطبي، وكأنه كان قد هيأ نفسه ليداوي معركة كبيرة، أما أنا فقد توجب علي أن أحمل كل هذه الأغراض مما يسمح لي أن أقوم بالمهام الإسعافية للمبارزة. كان الشفق أخضر اللون، وقد وقف المتبارزان الأسودان بسيفيهما منتظرين إشارة البدء. نفخ غالاتيو بالبوق، وتلك كانت هي إشارة البدء. كانت السماء تهتز وكأنها غشاء مشدود، وكانت حيوانات الجيري في جحورها تحفر الأرض بأظافرها، أما العقاعق فكانت ودون أن ترفع رؤوسها من تحت الأجنحة، تمزق ريشها من تحت آباطها وهي تكابد الشعور بالألم. أمّا اللومبريكو فكانت تأكل ذيولها، وتقضم بأسنانها، وكانت الزنابير تغرز شوكها في الحجارة وكان كل شيء يستدير نحو نفسه، ندى المستنقعات، حزاز الصخر غدا صخراً على حين تحول الصخر إلى حزاز صخر، أما أوراق الشجر اليابسة فقد أصبحت تراباً، وكان الصمغ السميك يأكل الأشجار، هكذا يندفع المرء نحو نفسه، وقد أشهر كل منهما سيفاً بوجه الآخر.

ومرة أخرى اشتغل بيتروكيودو كمعلم محترف، كان الفرجاران يرسمان دوائر على الأرض، وكان المبارزان يقذفان أحدهما الآخر، وهما يقومان بقفزات رشيقة وخشبية، كانا يقومان بصد الضربات ولكن دون أن يحتكا معاً. في الحقيقة، كان رأس السيف يبدو وكأنه ينقاد نحو معطف العدو المتطاير. كان كل منهما يجرؤ على أن يقي نفسه من اللاشيء، أي بالضبط من القسم الذي كان من المفترض أن يكون فيه هو نفسه. بالتأكيد، فلما كان الأمر متعلقاً بمبارزة بين شطرين فإن هذا الصراع سيكون داخلياً، ومن يدري كم عدد المرات التي جُرحا فيها. كان الغرامو يقاتل بضراوة وغضب، لكنه لم يستطع أبداً إيصال هجومه إلى الخصم، أما الطيِّب فقد كان يتسم بدقة محترف أعسر، لكنه لم يكن يصل إلا إلى معطف الڤيسكونت.

وفي لحظة ما بدأ أحدهما بطعن الآخر، كان رأسا الفرجارين قد انغرسا في التراب وكأنهما مسحاة زراعية، لكن الغرامو استطاع تحرير نفسه قافزاً، واستعاد توازنه وراح يدور فوق التراب وتمكن من طعن العدو، طعنة رهيبة، لم تصب جسمه، ولكن تقريباً، بالضبط في المكان الذي كان قد شُطِر منه جسم الطيب، في منطقة قريبة جداً لدرجة أننا لم نكد ندرك إن كان قد أصيب هنا أم هناك. لكننا سرعان ما تنبهنا إلى أن الجسم داخل المعطف قد امتلأ بالدماء من أعلى قمة الرأس وحتى القدمين. لم يكن أي شك في هذا، وبينما كان الطيِّب يهوي أرضاً استطاع بضربة سيف أخيرة أن يصيب الغرامو من رأسه حتى القدم، وبالضبط في نفس المنطقة التي شُطِرَ منها، لذا فحتى جسم الغرامو كان قد امتلأ بالدماء. كانت الضربتان القاصمتان لكليهما قد مزقت شرايينهما، وفتحت الجرح الذي قسمهما فيما مضى، وهاهما الآن منقلبين وقد امتزجت دماء الواحد منهما بدماء الآخر فوق التراب.

وقد أُخذ الجميع بهذا المشهد الرهيب، لكنني تنبهت إلى أن الدكتور تريلاوني كان يقفز فرحاً بقدمين تسبقهما قدما صرصار، وهو يصفق، ويصرخ: إنه حي، إنه حي، أتركوني فها قد حان وقت عملي.

بعد نصف ساعة، حملنا إلى القصر جريحاً واحداً فوق نقالة، ذلك أن الغرامو والطيِّب كانا قد ضُمِّدا معاً، كان الدكتور قد قام بلصق أحشاء وأوردة هذا إلى أحشاء وأوردة الآخر، كان قد ضمد الجزأين بشاش طوله كيلومتراً واحداً، ولصق به الجزأين المشطورين لدرجة أنه لم يعد يتضح بأنه جريح، بل ميت قديم وقد حُقِن بالبلسم.

أمضى خالي أياماً وليالي بين الحياة والموت، وفي أحد الصباحات، وبينما كنا ننظر إليه، شاهدنا وسماً أحمر يقسم الجسد من الرأس ثم يمتد حتى الرقبة. قالت المربية سيباستيانا: ها هو ذا، إنه يتحرك.

كان خالي قد بدأ يستعيد قسماته، وكان الدكتور تريلاوني يبكي من فرط بهجته وهو يرى هذا التوحد في القسمات يعبُر من وجنة إلى أخرى.

أخيراً فتح خالي عينيه وشفتيه. في بداية الأمر كانت القسمات قد امتزجت واختلطت، كانت إحدى عينيه مُقطّبة والأخرى ضارعة، الجبهة في هذا الجزء متغضنة وفي الجانب الآخر صافية ونقية. الفم مبتسم من إحدى زاويتيه، ومنفرج من الجانب الآخر، ثم رويداً رويداً بدأ الانسجام يحيط بكل قسماته، عندئذٍ قال الدكتور تريلاوني:

- الآن، لقد شفي.

هتفت باميللا: أخيراً عندي زوج واحد رغم كل مايمكن أن ينسب إليه.

وهكذا عاد خالي إنساناً كاملاً. لم يكن شريراً ولا خيراً. وإنما مزيج من الخير والشر، أي أنه في الظاهر لم يكن يشبه ذلك الإنسان الذي شطر في البداية، لكنه إنسان جديد خبِر معنى الخير والشر، وعاش جزأيهما. ولهذا السبب ربما غدا أكثر حكمة. ثم ما لبث أن عاش حياةً سعيدةً، وأنجب الكثير من الأطفال وغدا حاكماً صالحاً. حتى حياتنا تغيرت نحو الأفضل، وربما كنا ننتظر أن يعود الڤيسكونت إنساناً كاملاً لكي نحس بحلاوة حياتنا وبالسعادة الرائعة. ولكن من الواضح أنه لم يعد يكفي أن يعود الڤيسكونت كاملاً بمفرده، ذلك أن الأمل معقود على عودة العالم كله إلى مثل هذا الكمال.

في كل الأحوال لم يعد بيتروكيودو يخترع مشانق بل طواحين، أما الدكتور تريلاوني فقد أخذ يستخدم الحشرات المُضيئة في سبيل علاج مَرَضَيْ الحصبة والحمرة. أما أنا، وفي غمرة توهجي واتقاد الشباب في داخلي، فقد كنت أكابد الشعور بالحزن والنقصان، ذلك أنه في أحيان كثيرة يعتقد المرء بأنه كامل، في حين أن مثل هذا الشعور ليس سوى شعور طفولي. كنت قد وصلت إلى عتبة المراهقة، ولكني مازلت أختبئ بين أشجار الغابة الضخمة وأنا أروي القصص. ذلك أن إبرة صنوبر كان يمكن أن تمثل لي فارساً أو امرأة نبيلة، أو مهرجاً. وها أنا ذا ألهو بها أمام عينيّ، بينما توحي لي بقصص لانهاية لها. ثم ما ألبثُ أن أشعر بالخجل من هذا الشطح الخيالي، فأولي الأدبار هارباً.

وقد جاء اليوم الذي قرر فيه الدكتور تريلاوني أن يغادرنا. ففي أحد الصباحات رست بعض السفن في خليجنا، وكانت تحمل الأعلام الإنكليزية، رست عند الشاطئ، وجاء أهل ترّالبا كلهم لمشاهدتها، باستثنائي أنا، إذ لم أكن على علم بقدومها. وعلى متاريس الجدران، وعلى الأشجار، كان ثمة حشد من البحارة، يعرضون الأناناس والأستار

المتحركة، وكانوا يحملون لوحات كتب عليها باللاتينية والإنكليزية. كان القبطان كوك يحدق بمنظاره في الشاطئ الممتد أمامه، وما أن ظهر الدكتور تريلاوني حتى أعطى الأمر برفع الأعلام «تعال هنا أيها الدكتور، يجب علينا أن نواصل المسير».

ودَّع الدكتور أهل ترّالبا، ثم غادر. صاح البحار «أوه، أوستراليا» على حين كان الدكتور يقف فوق السفينة وهو يحمل زجاجة نبيذ من نوع كانكارونيه، ومن ثم تحركت السفن وهي تنأى بعيداً عن الشط.

أما أنا فلم أشاهد أي شيء من ذلك. كنت مختبئاً في الغابة أروي القصص. وقد علمت بمغادرة الدكتور في وقت متأخر، لذا فقد هرعت راكضاً نحو الشاطئ وأنا أصرخ:

ـ دكتور، دكتور، تريلاوني، خذني معك، لايمكنك تركي هنا أيها الدكتور.

لكن السفن كانت قد يممت شطر الأفق، وبقيت أنا هنا في عالمنا المملوء بالمسؤولية والحشرات المُضيئة.

من عناوين الدار

هرمس مثلث العظمة (النبي إدريس)	تأليف: لويس مينـــارد
الفرعون الأخير أو (زوال حضارة)	تأليف: فرانسيس فيفـر
مفهوم العدل في الإسـلام	تأليف: د. مجيد خدّوري
موسوعة الجيب لقواعد الإنكليزية	إعداد: نورالدين البهلول
أصحاب الجلالة ـ الأهرامات	تأليف: ف. زاماروفسكي
ليـالٍ هنديـــة (رواية)	تأليف: أنطونيو تابكي
قوّة الأسطـــورة	تأليف: جوزيف كامبل
نيتشة مكافحناً ضدّ عصره	تأليف: رودولف شتاينر
أزمة حوضي دجلة والفرات	تأليف: صاحب الربيعي
شخصية المولود البكر نشأةً وبلوغاً	تأليف: كيفين ليمان

الفيسكونت المشطور

«الفيسكونت المشطور» هي الرواية الأولى من ثلاثية للأديب الإيطالي الشهير إيتالو كالفينو. وهذه الروايات الثلاث لايجمع بينها رابط غير أنها تجري في أماكِنَ مُتَخيَّلة، وفي أحقابٍ بعيدةٍ، وأنها غير حقيقية، وقد أطلق المؤلف عليها عنوان «أسلافنا» إضافة إلى أن كل رواية تحمل عنواناً خاصاً بها ومستقلاً؛ ومدعاة ذلك، على حدِّ قول الكاتب نفسه، أنها تمثل شجرة أنساب الإنسان الأوروبي المعاصر، حيث تبدو كل رواية منها وكأنها تعرض جانباً من حقيقة ذلك الإنسان الذي يعيش حولنا.

وربما كانت هذه الروايات تسبر بعضاً من الطرق التي كان على الأوروبيين شقها لتجاوز ذاتهم والوصول بأنفسهم إلى ما هم عليه الآن.

تحكي رواية «الفيسكونت المشطور»، التي نقدمها هنا للقارئ العربي، قصة نبيلٍ خَبِرَ مسألة الصراع بين الخير والشر؛ نقول الصراع ونقصد به ذلك الصراع الداخلي الذي يشكِّلُ حقيقة وجوهر الإنسان.

أما الروايتان التاليتان فتحمل الأولى عنوان «بارون معلق» والثانية «فارس غير موجود».

الناشر



سورية - دمشق - برامكة - شارع فلسطين
ص. ب: 2229 ، هاتف - فاكس: 2126326